أقسم لو كلفتهم أن يسمعوا
حديث أيامك ما أطاقوا

لما اشتكيت دبّ في أهوائهم
توجس للسمع واستراق

تطاولوا لاعدمت أمالهم
قصراولا جانبها الاخفاق

توهموها غنقا ثم انجلت
والصفو من مشربهم غساق

لئن ألمّ بقدم
خد السها لنعلها طراق

أو كان مدّيده إلى يد
يجري بها الآجال والأرزاق

فالنصل يعلى صدأ وتحته
حد الحسام وسنا رقراق

رمى الصليب بصليب الرأي عن
زوراء أوهى نزعها الاغراق

ونوم من خلف الخليج سهر
والعيش في فرنجة سياق

ما توافلا همس ولا اشارة
خوف هموس زاره ارهاق

لاسلبت منك الليالي ما كست
ولا عرت جدّتك الاخلاق

فصل

في وفاة زنكي رحمه الله

قال ابن الأثير: كانت قلعة جعبر قد سلمها السلطان ملكشاه إلى الأمير سالم بن مالك العقيلي لما ملك قسيم الدولة مدينة حلب، فلم تزل

بيده ويد أولاده إلى سنة احدى وأربعين، فسار الشهيد إليها فحصرها وحصر فنك لئلا يبقى في وسط بلاده ما هو لغيره، وإن قل، للحزم الذي كان عنده والاحتياط، وأقام عليه يحصره بنفسه إلى أن مضى من شهر ربيع خمس ليال، فبينما هو نائم دخل عليه نفر من مماليكه فقتلوه ولم يجهزوا عليه وهربوا من ليلتهم إلى القلعة، ولم يشعر أصحابه بقتله، فلما صعد أولئك النفر إلى القلعة صاح من بها إلى العسكر يعلمهم بقتله فبادر أصحابه إليه فأدركه أوائلهم وبه رمق، ثم ختم الله له بالشهادة أعماله:

لاقى الحمام ولم أكن مستيقنا
أنّ الحمام سيبتلى بحمام

فأضحى وقد خانه الأمل وأدركه الأجل، وتخلى عنه العبيد والخول، فأي نجم للاسلام أفل، وأيّ ناصر للايمان رحل، وأي بحر ندى نضب، وأي بدر مكارم غاب، وأي أسد افترس، ولم ينجه قلة[٤٧] حصن ولا صهوة فرس، فكم أجهد نفسه لتمهيد الملك وسياسته، وكم أدبها في حفظه وحراسته، فأتاه مبيد الأمم ومفنيها في الحدث والقدم، فأصاره بعد القهر للخلائق مقهورا، وبعد وثير المضاجع في التراب معفرا مقبورا، رهين جدث لاينفعه إلا ما قدم، فطويت صفحة عمله، فهو موثوق في صورة مستسلم، ثم دفن بصفين عند أصحاب عليّ أمير المؤمنين رضي الله عنه.[٤٨]

قلت: وذكر العماد الكاتب في كتاب السلجوقية قال: قصد زنكي حصار قلعة جعبر ، فنازلها وكان إذا نام ينام حوله عدّة من خدّامه الصباح، وهو يحبهم ويحبوهم ولكنهم مع الوفاء منه يجفوهم، وهم أبناء الفحول القروم من الترك والروم، وكان من دأبه أنه إذا نقم على كبير أرداه، وأقصاه، واستبقى ولده عنده وأخصاه. فنام ليلة موته وهو سكران فشرع الخدّام في اللعب فزجرهم وزبرهم وتوعدهم، فخافوا من سطوته،

فلما نام ركبه كبيرهم واسمه يرنقش فذبحه، وخرج ومعه خاتمه، فركب فرس النوبة موهما أنه يمضي في مهم، وهو لايرتاب به لانه خاص زنكي، فأتى الخادم أهل القلعة فأخبرهم.وذكر الحديث(٤٩)

قلت: ثم نقل إلى الرقة فدفن بها، وقبره الآن فيها.

قال ابن الاثير: وكان حسن الصورة، مليح العينين، قد وخطه الشيب، طويلا وليس الطويل البائن، وخلف من الاولاد سيف الدين غازيا وهو الذي ولي بعده، ونور الدين محموداً الملك العادل، وقطب الدين مودوداً، وهو أبو الملوك بالموصل، ونصرة الدين أمير أميران، وبنتا فانقرض عقب سيف الدين من الذكور والأناث، ونور الدين من الذكور، ولم يبق الملك إلا في عقب قطب الدين، ولقد أنجب رحمه الله، فان أولاده الملوك لم يكن مثلهم».

قلت: ومن عجيب ما حكي أنه لما اشتدّ حصاره قلعة جعبر جاء في الليل ابن حسان المنبجي، ووقف تحت القلعة ونادى صاحبها فأجابه فقال له: هذا المولى أتابك صاحب البلاد وقد نزل عليك بعساكر الدنيا، وأنت بلا وزير ولا معين، وأنا أرى أن أدخل في قضيتك وآخذ لك من المولى أتابك مكاناً عوض هذا المكان، وإن لم تفعل فأي شيء تنتظر؟ *فقال له صاحب القلعة : أنتظر الذي انتظر أبوك، وكان بلك بن بهرام صاحب حلب قد نزل على أبيه حسان وحاصره في منبج أشدّ حصار، ونصب عليه عدّة مجانيق ، وقال يوما لحسان وقد أحرقه بحجارة المنجنيق أي شيء تنتظر أما تسلم الحصن ؟ فقال له حسان: انتظر سهما من سهام الله، فلما كان في الغد بينا بلك يرتب المنجنيق إذ أصابه سهم غرب وقع في لبته فخر ميتاً، ولم يكن من جسده شيء ظاهر إلا ذلك المكان لأنه كان قد لبس الدرع، ولم يزرّها على صدره، فلما سمع ابن حسان ذلك من مقالة صاحب قلعة جعبر رجع عنه، وفي تلك الليلة قتل أتابك،

فكان هذا من الاتفاقات العجيبة والعبر الغـريبة ، ذكر ذلك يحيى بن أبي طيّ في كتاب السيرة الصلاحية.

فصل

في بعض سيرة الشهيد أتابك زنكي

وكانـت من أحسـن سير الملوك، وكانـت رعيته في أمـن شامـل يعجز القوي عن التعدّي على الضعيف.

قال ابـن الاثير: حدثنـي والدي قـال: قدم الشهيـد إلينا بجـزيرة ابـن عمر في بعض السنين، وكـان زمن الشتاء فنزل بالقلعـة، ونزل العسكر في الخيام وكان في جملـة أمرائه الأمير عز الديـن أبو بكر الدبيسي، وهـو من أكابـر أمرائه ومـن ذوي الرأي عنـده، فدخـل الدبيسي البلـد ونزل بـدار إنسان يهودي وأخرجـه منها، فاستغاث اليهودي إلى الشهيـد، وهو راكب فسأل عن حالـه فأخبر به، وكان الشهيد واقفاً والـدبيسي إلى جانبه ليس فـوقه أحـد فلما سمـع أتابـك الخبر نظـر إلى الـدبيسي نظر مغضـب، ولم يكلمه كلمـة واحدة فتـأخر القهقـرى ودخل البلـد وأخرج خيـامه وأمـر بنصبهـا خارج البلـد، ولم تكن الأرض تحتمـل وضع الخيـام عليها لكثـرة الوحـل والطين، قال: فلقـد رأيت الفـرّاشين وهم ينقلـون الطين لينصبوا خيمتـه فلما رأوا كثرتـه جعلوا على الأرض تبنـا ليقيموهـا، ونصبوا الخيـام وخرج إليها من ساعته.

قال: وكان ينهى أصحابه عن اقتنـاء الأملاك ويقول مهما كانت البلاد لنـا فأي حـاجـة لكـم إلى الأملاك، فـان الاقطـاعـات تغني عنهـا، وإن خـرجت البـلاد عن أيـدينـا فإن الأمـلاك تـذهب معهـا، ومتى صـارت

الأملاك لأصحاب السلطان ظلموا الرعية وتعدّوا عليهم وغصبوهم أملاكهم، ثم ذكر ما تجدّد في أيامه من عمارة البلاد لاسيما بالموصل، وذلك لحسن سيرته، فكان يقصده الناس ويتخذون بلاده دار إقامة، وهو الذي أمر ببناء دار المملكة بالموصل، ولم يكن بها للسلطان غير الدار المعروفة بدار الملك مقابل الميدان، ثم رفع سورها، وعمق خندقها، وهو الذي فتح الباب العمادي وإليه ينسب.

قال: وكانت الموصل أقل بلاد اللّه فاكهة، وكان الذي يبيع الفواكه يكون عنده مقراض يقص به العنب لقلته إذا أراد أن يزنه، فلما عمرت البلاد عملت البساتين بظاهر الموصل وفي ولايتها.

قال: ومن أحسن آرائه أنه كان شديد العناية بأخبار الاطراف، وما يجري لأصحابها حتى في خلواتهم، لاسيما دركاه السلطان، وكان يغرم على ذلك المال الجزيل، فكان يطالع ويكتب إليه بكل ما يفعله السلطان في ليله ونهاره من حرب وسلم وهزل وجد وغير ذلك، فكان يصل إليه كل يوم من عيونه عدّة قاصدين، وكان مع اشتغاله بالأمور الكبار من أمور الدولة لايهمل الاطلاع على الصغير، وكان يقول :إذا لم يعرف الصغير ليمنع صار كبيرا.

وكان لايمكن رسول ملك يعبر في بلاده بغير أمره، وإذا استأذنه رسول في العبور في بلاده أذن له وأرسل إليه من يسيره، ولايتركه يجتمع بأحد من الرعية ولاغيرهم، فكان الرسول يدخل بلاده ويخرج منها ولم يعلم من أحوالها شيئا.

وكان يتعهد أصحابه ويمتحنهم : سلم يوما خشكنانكة(٥٠)إلى طشت دار له، وقال: احفظ هذه فبقي نحو سنة لايفارق الخشكنانكة خوفاً أن يطلبها منه، فلما كان بعد ذلك قال له: أين الخشكنانكة،

فأخرجها في منديل وقدّمها بين يديه، فاستحسن ذلك منه وقال: مثلك ينبغي أن يكون مستحفظا لحصن، وأمر له بدزداريه قلعة كواشي، فبقي فيها إلى أن قتل أتابك، وكان لايمكن أحداً من خدمه من مفارقة بلاده، ويقول: إن البلاد كبستان عليه سياج فمن هو خارج السياج يهاب الدخول، فإذا خرج منها من يدلّ على عورتها ويطمع العدوّ فيها زالت الهيبة، وتطرّق الخصوم إليها.

قال: ومن صائب رأيه وجيده أن سير طائفة من التركمان الايوانية مع الأمير اليارق إلى الشام ، وأسكنهم بولاية حلب، وأمرهم بجهاد الفرنج وملكهم كلما استنقذوه من البلاد التي للفرنج وجعله ملكاهم، فكانوا يغادون الفرنج القتال ويراوحونهم، وأخذوا كثيرا من السواد، وسدّوا ذلك الثغر العظيم، ولم يزل جميع ما فتحوه في أيديهم إلى نحو سنة ستمائة.

قال: ومن آرائه أنه لما اجتمع له الأموال الكثيرة أودع بعضها بالموصل، وبعضها بسنجار، وبعضها بحلب، وقال: إن جرى على بعض هذه الجهات خرق أو حيل بيني وبينه استعنت على سدّ الخرق بالمال في غيره .

قال: وأما شجاعته وإقدامه فإليه النهاية فيهما، وبه كانت تضرب الأمثال، ويكفي في معرفة ذلك جملة أن ولايته أحدق بها الأعداء والمنازعون من كل جانب: الخليفة المسترشد والسلطان مسعود وأصحاب أرمينية وأعمالها، بيت سكمان وركن الدولة داود صاحب حصن كيفا، وابن عمه صاحب ماردين، ثم الفرنج، ثم صاحب دمشق، وكان ينتصف منهم ، ويغزو كلا منهم في عقر داره، ويفتح بلادهم ماعدا السلطان مسعود فإنه كان لايباشر قصده، بل كان يحمل أصحاب الأطراف على الخروج عليه، فإذا فعلوا عاد السلطان محتاجاً

إليه، وطلب منه أن يجمعهم على طاعته، فيصير كالحاكم على الجميع وكل يداريه ويخضع له ويطلب منه ما تستقر القواعد على يده.

قال: وأمّا غيرته فكانت شديدة، ولاسيما على نساء الأجناد فإن التعرّض إليهن كان من الذنوب التي لايغفرها، وكان يقول: إن جندي لايفارقوني في أسفاري، وقلمايقيمون عندأهلهم، فإن نحن لم نمنع من التعرض إلى حرمهم هلكن وفسدن.

قلت:وفي صحيح مسلم من حديث أبي سعيد الخدري وذكر حديث رجم النبي صلى الله عليه وسلم ماعزا، قال: ثم قام رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيباً قال:« أو كلما انطلقنا في سبيل الله خلف رجل في عيالنا له نبيب كنبيب التيس على أن لا اؤتى برجل فعل ذلك إلا نكلت به»(٥١).

قال ابن الاثير: وكان قد أقام بقلعة الجزيرة دزداراً اسمه نور الدين حسن البربطي، وكان من خوّاصه وأقرب الناس إليه، وكان غير مرضي السيرة، فبلغه عنه أنه يتعرّض للحرم، فأمر حاجبه صلاح الدين الياغيساني أن يسير مجدّا ويدخل الجزيرة فإذا دخلها أخذ البربطي وقطع عينيه عقوبة لنظره بهما إلى الحريم ثم يصلبه، فسار الصلاح مجداً فلم يشعر البربطي إلاّ وقد وصل إلى البلد فخرج إلى لقائه، فأكرمه ودخل معه البلد وقال: المولى أتابك يسلم عليك ، ويريد أن يعلي قدرك ويرفع منزلتك ويسلم إليك قلعة حلب ويوليك جميع البلاد الشامية لتكون هناك مثل نصير الدين، فتجهز وتحذّر مالك في الماء إلى الموصل، وتسير إلى خدمته، ففرح ذلك المسكين، فلم يترك له قليلاً ولاكثيراً إلا نقله إلى السفن ليحدرها إلى الموصل في دجلة، فحين فرغ من جميع ذلك أخذه الصلاح وأمضى فيه ما أمربه، وأخذ جميع ما له فلم يتجاسر بعده أحد على سلوك شيء من أفعاله.

قال: وإما صدقاته، فقد كان يتصدق كل جمعة بمائة دينار أميري ظاهراً ويتصدق فيما عداه من الأيام سراً مع من يثق به، وركب يوما فعثرت به دابته، فكاد يسقط عنها، فاستدعى أميراً كان معه فقال له كلاماً لم يفهمه ولم يتجاسر على أن يستفهمه منه، فعاد عنه إلى بيته، وودّع أهله عازماً على الهرب، فقالت له زوجته: ماذنبك؟ وما حملك على هذا الهرب؟ فذكر لها الحال فقالت له: إنّ نصير الدين له بك عناية فاذكر له قصتك وافعل ما يأمرك به، فقال: أخاف أن يمنعني من الهرب فأهلك، فلم تزل زوجته تراجعه وتقوّي عزمه فعرّف النصير حاله فضحك منه، وقال له: خذ هذه الصرة الدنانير واحملها إليه فهي التي أراد ، فقال: اللّه اللّه في دمي ونفسي، فقال: لابأس عليك فإنه ماأراد غير هذه الصرّة فحملها إليه، فحين رآه قال: أمعك شيء؟ قال: نعم فأمره أن يتصدّق به، فلما فرغ من الصدقة قصد النصير وشكره وقال: من أين علمت أنه أراد الصرة ؟ فقال له: إنه يتصدّق في هذا اليوم بمثل هذا القدر يرسل إليّ من يأخذه من الليل وفي يومنا هذا لم يأخذه، ثم بلغني أن دابته عثرت به حتى كاد يسقط إلى الأرض، وأرسلك إليّ فعلمت أنه ذكر الصدقة.

قال : وحكي لي من شدّة هيبته ما هو أشد من هذا، قال والدي: خرج يوما الشهيد من القلعة بالجزيرة من باب السر خلوه، وملاح له نائم فأيقظه بعض الجاندارية، وقال له: اقعد فحين رأى الشهيد سقط إلى الارض فحرّكوه فوجدوه ميتاً.

قال: وكان الشهيد قليل التلوّن والتنقل بطيء الملل والتغير شديد العزم لم يتغير على أحد من أصحابه مذ ملك إلى أن قتل إلاّ بذنب يوجب التغير، والأمراء والمقدمون الذين كانوا معه أولا هم الذين بقوا أخيرا من سلم منهم من الموت، فلهذا كانوا ينصحونه ويبذلون نفوسهم له، وكان الانسان إذا قدم عسكره لم يكن غريبا إن كان جنديا اشتمل

عليه الاجناد وأضافوه، وإن كان صاحب ديوان قصد أهل الديوان، وإن كان عالما قصد القضاة بني الشهرزوري فيحسنون إليه ويؤنسون غربته، فيعود كأنه أهل، وسبب ذلك جميعه أنه كان يخطب الرجال ذوي الهمم العالية والآراء الصائبة، والأنفس الأبية، ويوسع عليهم في الأرزاق فيسهل عليهم فعل الجميل واصطناع المعروف.

قلت: وما أحسن ما وصفه به أحمد بن منير من قوله في قصيدة:

في ذرا ملكه هو الدهر عطاء واستلابا
من له كف تبذ الغيث سحا وانسكابا
فاتح في وجه كل أمّة للنصر بابا
ترجف الدنيا إذا حر ك للسير الركابا
وتخر المشمخرّا ت اختلالا واضطرابا
وترى الاعداء من هيبته تأوي الشعابا
وإذا ما الفحتهم نا ره صاروا كبابا
يا عماد الدين لازلـ ـت على الدين سحابا
جاء علا من دونه سيفك إن ريع حجابا
فالبس النعماء في الا مر الذي طبت وطابا
وأصف عيشا إنّ أعـ ـداءك قد صاروا ترابا

وقال العماد الكاتب: استولى زنكي على الشام من سنة اثنتين وعشرين إلى أن قتل في سنة إحدى وأربعين ،وهو الذي فتح الرها عنوة، واحتلّ بها من السعادة ذروة، فتسنى بفتح الرها للمسلمين جوس بلاد جوسلين وعاد جميعها إلى الاسلام في عهد ولد زنكي نور الدين، وصارت عقود الفرنج، من ذلك الحين تنفسخ وأمورها تنتسخ، ومعاقلها تفرع، وعقائلها تفترع.

وقال الرئيس أبو يعلى التميمي: كانت الأعمال بعد قتل زنكي قد اضطربت والمسالك، قد اختلت بعد الهيبة المشهورة والامنة المشكورة، وانطلقت أيدى التركمان والحرامية في فساد الأطراف، والعيث في سائر النواحي والأكناف، ونظمت في صفة هذه الحال أبيات من قصيدة:

كذاك عماد الدين زنكي تنافرت
سعادته عنه وخرت دعائمه
وكم بيت مال من نضار وجوهر
وأنواع ديباج حوتها مخاتمه
وأضحت بأعلى كل حصن مصونة
يحامي عليها جنده وخواصه
ومن صافنات الخيل كل مطهم
يروع الأعادي حليه وبراجمه
فلو رامت الكتاب وصف شياتها
بأقلامها ما أدرك الوصف ناظمه
وكم معقل قد رامه بسيوفه
وشامخ حصن لم تفته غنائمه
وكانت ولاة الأرض فيها الأمره
وقد أمنتهم كتبه وخواتمه
وأمن من في كل قطر لهيبة
يراع بها أعرابه وأعاجمه

وظـــالم قـــوم حين يـــذكـــر عـــدلـــه
فقـــد زال عنهـــم ظلمـــه وخصـــائمـــه
وأصبـــح سلطـــان البـــلاد بسيفـــه
وليـــس لـــه فيهـــا نظير يـــزاحمه
وزاد على الامـــلاك بـــأســـا وسطـــوة
ولم يبـــق في الأمـــلاك ملـــك يقـــاومـــه
فلما تنـــاهـــى ملكـــه وجـــلالـــه
وراعـــت ولاة الارض منـــه لـــوائمـــه
أتـــاه قضـــاء لا تـــردّ سهـــامـــه
فلـــم تنجـــه أمـــوالـــه ومغـــانمـــه
وأدركـــه للحين فيهـــا حمامـــه
وحـــامـــت عليـــه بـــالمنـــون حـــوائمـــه
وأضحـــى على ظهـــر الفـــراش مجدّلا
صريعـــا تـــولى ذبحـــه فيـــه خـــادمـــه
وقـــد كـــان في الجيـــش اللهـــام مبيتـــه
ومـــن حـــولـــه أبطـــالـــه وصـــوارمـــه
وسمـــر العـــوالي حـــولـــه بـــأكفهـــم
تـــذود الـــردى عنـــه وقـــد نـــام نـــائمـــه
ومـــن دون هـــذا عصبـــة قـــد تـــرتبـــت
بـــأسهمهـــا يـــردى مـــن الطير حـــائمـــه
وكـــم رام في الأيـــام راحـــة سرّه
وهمتـــه تعلـــو وتقـــوى شكـــائمـــه
وكـــم مسلـــك للسفـــر آمـــن سبلـــه
ومسرح حـــيّ لـــن تـــراع ســـوائمـــه
وكـــم ثغـــر اســـلام حـــواه بسيفـــه
مـــن الـــروم لما أدركتـــه مـــراحمه
فمـــن ذا الـــذي يـــأتي بهيبـــة مثلـــه
وينفـــذ في أقصـــى البـــلاد مـــراسمـــه

فلـــو رقيـــت في كـــل مصر بـــذكـــره
أراقمـــــه ذلـــــت هنـــــاك أراقمـــــه
فمـــن ذاالـــذي ينجـــو مـــن الـــدهـــر ســـالما
إذا مـــــا أتـــــاه الأمـــــر واللّـــــه حـــــاتمه
ومـــــن رام صفـــــواً في الحيـــــاة فما يـــــرى
لـــــه صفـــــو عيـــــش والحمام يحاومـــــه
فـــإيـــــاك لاتغبـــــط مليكـــــاً بملكـــــه
ودعـــــه فـــإنّ الـــدهـــر لاشـــك قـــاصمـــه
وقـــل للـــذي يبنـــي الحصـــون لحفظـــه
رويـــدك مـــا تبنـــي فـــدهـــرك هـــادمـــه
وفي مثـــل هـــذا عبرة ومـــواعـــظ
بهايتنـــاســـى المرء مـــاهـــو عـــازمـــه

قـال: وفي ثامـن عشر جمادى الآخرة مـن السنة وصـل الخادم يرنقـش القاتـل لعماد الدين زنكـي وانفصل مـن قلعة جعبر لخوف صاحبهـا من طلبه، فـوصل دمشق ميقنـا أنه قد أمـن بها، ومدلاً بما فعله وظنـاً منه أن الحال على ما توهمه فقبـض عليه، وأنفذ إلى حلب في صحبـة من حفظه وأوصله، فأقام بها أياما، ثم حمل إلى الموصل وذكر أنه قتل بها .

قلـت : وللحكيم أبي الحكـم المغـربي قصيـدة في مرثيـه الشهيـد عماد الدين زنكي رحمه الله منها:

عين لاتـــذخـــري المدامـــع وابكـــي
واستهلي دمـــاعلى فقـــدزنكـــي
لم يهب شخصـــه الـــردى بعـــد أن كـــا
نـــت لـــه هيبـــة على كـــل تـــركـــي
خير ملـــــك ذي هيبـــــة وبهاء
وعظيـــم بين الانـــام بـــزرك(٥٢)
يهب المال والجيـــــاد لمن يمـــــ
ـــــمه مـــادحـــا بغير تلكـــي

إن دارا تمدّنـــا بـــالـــرزايـــا
هـــي عنـــدي أحـــق دار بترك
فـــاسكبـــوا فـــوق قبره مـــاء ورد
وانضحـــوه بـــزعفـــران ومســـك
أيّ فتـــك جـــرى لـــه في الاعـــادي
بعـــدمـــا استفتـــح الـــرهـــا أيّ فتـــك
كـــل خطـــب أتـــت بـــه نـــوب الـــدهـــ
ـــر يسير في جنـــب مصرع زنكـــي
بعـــدمـــا كـــاد أن تـــديـــن لـــه الـــرو
م ويحوي البـــلاد مـــن غير شـــك

فصل
فيما جرى بعد قتل زنكي من تفرّق أصحابه وتملك ولديه غازي ومحمود

قال الرئيس أبو يعلى : توجه الملك ولد السلطان المقيم كان معه فيمن صحبه، وانضم إليه إلى ناحية الموصل ، ومعه سيف الدين غازي بن عماد الدين أتابك، وامتنع عليهم الوالي بالموصل على كوجك أياما إلى حين تقرّرت الحال بينهم، ثم فتح الباب ودخل ولده واستقام له الأمر ، وانتصب منصبه، وعاد الأمير سيف الدولة سوار وصلاح الدين.- يعني- محمد بن أيوب الياغيساني في تلك الحال إلى ناحية حلب ومعهما الأمير نور الدين محمود بن زنكي، وحصل بها وشرع في جمع العساكر، وإنفاق المال فيها، واستقام له الأمر وسكنت الدهماء.

وفصل عنه الأمير صلاح الدين ، وحصل بحماة ولايته على سبيل الاستيحاش والخوف على نفسه من أمر يدبر عليه.

وقال الحافظ أبو القاسم : لما راهق نور الدين لزم خدمة والده إلى أن انتهت مدّته على قلعة جعبر.و سير في صبيحة الأحد الملك ألب أرسلان ابن السلطان مسعود إلى الموصل مع جماعة من أكابر دولة أبيه، وقال لهم: إن وصل أخي سيف الدين غازي إلى الموصل فهي له وأنتم في خدمته، وإن تأخر فأنا أقرّر أمور الشام وأتوجه إليكم، ثم قصد حلب ودخل قلعتها يوم الاثنين سابع ربيع الآخر ورتب النواب في القلعة والمدينة.

قال ابن أبي طي الحلبي: لما اتصل قتل أتابك بأسد الدين شيركوه ركب من ساعته وقصد خيمة نور الدين، وقال له: إعلم أن الوزير جمال الدين قد أخذ عسكر الموصل، وعوّل على تقديم أخيك سيف الدين

وقصده إلى الموصل وقد انضوى اليه جلّ العسكر، وقد أنفذ إليّ جمال الدين وأرادني على اللحاق به فلم أعرج عليه وقد رأيت أن أصيرك إلى حلب وتجعلها كرسي ملكك، وتجتمع في خدمتك عساكر الشام، وأنا أعلم أنّ الأمر يصير جميعه إليك لأن ملك الشام يحصل بحلب، ومن ملك حلب استظهر على بلاد الشرق، فركب وأمر أن ينادي في الليل في عساكر الشام بالاجتماع فاجتمعوا، وساروا في خدمة نور الدين إلى حلب ودخلوها سابع ربيع الأوّل، ولما دخلوا حلب جاء أسد الدين إلى تحت القلعة ونادى واليها، وأصعد نور الدين إليها وقرّر أمره ومشىّ أحواله، فكان نور الدين يرى له ذلك، وأسد الدين يمن بأنه كان السبب في توليته.

وقال ابن الأثير: لما قتل أتابك الشهيد ركب الملك ألب أرسلان ابن السلطان مسعود، وكان مع الشهيد واجتمعت العساكر عليه وخدموه، فأرسل جمال الدين الوزير إلى الصلاح يقول له المصلحة أن نترك ما كان بيننا وراء ظهورنا ونسلك طريقا نبقي به الملك في أولاد صاحبنا،ونعمر بيته جزاء لإحسانه إلينا، فإن الملك قد طمع في البلاد، واجتمعت عليه العساكر، وحلف كل واحد منهما لصاحبه، فركب الجمال إلى الملك فخدمه وضمن له فتح البلاد وأطمعه فيها ومعه الصلاح وقالا له: إن أتابك كان نائباً عنك في البلاد وباسمك كنا نطيعه، فقبل قولهما وظنه حقا، وقرّ بهما طمعا أن يكونا عوناً له على تحصيل غرضه، وأرسلا إلى زين الدين بالموصل يعرّفانه قتل الشهيد، ويأمرانه بالإرسال إلى سيف الدين غازي وهو ولد عماد الدين زنكي الأكبر وإحضاره إلى الموصل، وكان بشهر زور وهي إقطاعه من أبيه، ففعل زين الدين ذلك، وكان نور الدين محمود بن الشهيد قد سار لما قتل والده إلى حلب فملكها وذلك باشارة أسد الدين شيركوه عليه بذلك.

وقال الجمال للملك: إنّ من الرأي أن تسير الصلاح إلى مملوكك نور

الدين بحلب يدبر أمره، وكانت حماه إقطاع الصلاح فأمره ، فسار وبقي الجمال وحده مع الملك فأخذه وقصد الرقة، فاشتغل بشرب الخمر والخلوة بالنساء، وأراد أن يعطي الأمراء شيئا فمنعه خوفا من أن تميل قلوبهم إليه، وقاد لهم الاقطاع الجزيل والنعم الوافرة، وشرع الجمال يستميل العسكر ويحلف الأمراء لسيف الدين بن أتابك الشهيد واحداً بعد واحد،وكل من حلف يأمره بالمسير إلى الموصل هاربا من الملك، وأقام بالملك في الرقة عدّة أيام، ثم سار به نحو سنجار، وكان سيف الدين غازي قد دخل الموصل واستقرّ بها، فقوي حينئذ جنان جمال الدين ، ووصل هو والملك إلى سنجار،فأرسل إلى دزدارها وقال له لاتسلم البلد ولا تمكن أحداً من دخوله، ولكن أرسل إلى الملك وقل له إنا تبع الموصل فمتى دخلت الموصل سلمت إليك ففعل الدزدار ذلك، فقال الجمال للملك: المصلحة أننا نسير إلى الموصل فإن مملوكك غازي إذا سمع بقربنا منه خرج إلى الخدمة، فحينئذ نقبض عليه ونتسلم البلاد، فساروا عن سنجار وكثر رحيل العسكر إلى الموصل هاربين من الملك فبقي في قلة من العسكر، فساروا إلى مدينة بلد، وعبر الملك دجلة من هناك، فلما عبرها دخل الجمال الموصل، وأرسل الأمير عز الدين أبا بكر الدبيسي إلى الملك في عسكر وهو في نفر يسير فأخذه وأدخله الموصل ، فكان آخر العهد به.

واستقر أمر سيف الدين وأقر زين الدين على ما كان عليه من ولاية الموصل ، وجعل الجمال وزيره، وأرسلوا إلى السلطان مسعود فاستحلفوه لسيف الدين فحلف له وأقره على البلاد وأرسل له الخلع، وكان هذا سيف الدين قد لازم خدمة السلطان مسعود في أيام أبيه سفرا وحضرا وكان السلطان يحبه كثيراً ويأنس به ويبسطه، فلما خوطب في اليمين وتقرير البلاد له لم يتوقف.

قال ابن الاثير:فانظروا إلى جمال الدين وحسن عهده وكمال مروءته

ورعايته لحقوق مخدومه، وهذا المقام الذي ثبت فيه يعجز عنه عشرة آلاف فارس ، ولقد قلل من قال : الناس ألف منهم كواحد، وهو معذور لأنه لم ير مثل جمال الدين.

قال: ولما استقر سيف الدين في الملك أطاعه جميع البلاد ماعدا ما كان بديار بكر كالمعدن وحيزان وأسعرد، وغير ذلك فان المجاورين لها تغلبوا عليها.

قال: ولما فرغ سيف الدين من إصلاح أمر السلطنة وتحليفه وتقرير أمر البلاد، عبر إلى الشام لينظر في تلك النواحي ويقرر القاعدة بينه وبين أخيه نور الدين، وهو بحلب، وقد تأخر عن الحضور عند أخيه وخافه، فلم يزل يراسله ويستميله فكلما طلب نور الدين شيئا أجابه إليه استمالة لقلبه، واستقرت الحال بينهما على أن يجتمعا خارج المعسكر السيفي ومع كل واحد خمسمائة فارس فلما كان يوم الميعاد بينهما سار نور الدين من حلب في خمسمائة فارس، وسار سيف الدين من معسكره في خمسة فوارس، فلم يعرف نور الدين أخاه سيف الدين حتى قرب منه ، فحين رآه عرفه فترجل له وقبل الأرض بين يديه وأمر أصحابه بالعود عنه فعادوا، وقعد سيف الدين ونور الدين بعد أن اعتنقا وبكيا، فقال له سيف الدين: لم امتنعت من المجيء إليّ أكنت تخافني على نفسك واللّه ما خطر ببالي ما تكره، فلمن أريد البلاد ، ومع من أعيش وبمن اعتضد إذا فعلت السوء مع أخي وأحب الناس إليّ، فاطمأن نور الدين وسكن روعه، وعاد إلى حلب فتجهز وعاد بعسكره إلى خدمة أخيه سيف الدين، فأمره سيف الدين بالعود وترك عسكره عنده، وقال لاغرض لي في مقامك عندي وإنما غرضي أن يعلم الملوك والفرنج اتفاقنا، فمن يريد السوء بنا يكف عنه، فلم يرجع نور الدين ولزمه إلى أن قضيا ما كانا عليه، وعاد كل واحد منهما إلى بلده

قلت: ومن قصيدة لابن منير في نور الدين:

أيـــا خير الملـــوك أبـــا وجـــدّا
وأنفعهـــم حيـــا الغليـــل صـــاد
علـــوا وغلـــوا وقـــال النـــاس فيهـــم
شـــوارد مـــن ثنـــاء أو أحـــاد
ومـــا اقتسمـــوا ولا عمـــدوا بنـــاهـــم
بمنصبـــك القسيمـــي العمادي
وهـــل حلـــب ســـوى نفـــس شعـــاع
تقسمهـــا التمادي والتعـــادي
نفـــى ابـــن عماد الـــديـــن عنهـــا الـــ
شكـــاة فـــأصبحـــت ذات العماد
تبختر في كســـاء عـــدل وبـــذل
مـــدبجـــة التهـــائم والنجـــاد
وفي محرابها داود منـــه
يهذب حكمـــة آيـــات صـــاد
تجاوزت النجـــوم فـــأيـــن تبغـــي
تـــرق فـــلا خلـــوت مـــن ازديـــاد

فصل
فيما جرى بعد وفاة زنكي من صاحب دمشق والأفرنج المخذولين

قال ابن طي:في سابع يوم من استقرار نور الدين بحلب اتصل خبر مقتل أتابك بصاحب أنطاكية البيمند، فخرج في يومه بعساكر أنطاكيةوقسم عسكره قسمين قسماً أنفذه إلى جهة حماه، وقسما أغار به على جهة حلب، وعاث في بلادها، وكان الناس آمنين، فقتل وسبى عالما عظيما وتمادى حتى وصل إلى صلدى ونهبها، ووصل الخبر إلى حلب فخرج أسد الدين شيركوه فيمن كان بحلب من العساكر، وجدّ في السير ففاته الفرنج، وأدرك جماعة من الرجالة يسوقون الأسرى فقتلهم واستنقذ كثيراً مما كانت الفرنج أخذته، وسار مجنبا عن طريق الفرنج إلى أن شن الغارة على بلد ارتاح، واستاق جميع ما كان للفرنج فيه ، وعاد إلى حلب مظفراً.

وقال ابن الاثير : لما قتل الشهيد سار مجير الدين صاحب دمشق في عسكر إلى بعلبك ،وحاصرهم وبها نجم الدين أيوب والد السلطان صلاح الدين، فسلمها إليه وأخذ منه مالاً وملكه قرايا من أعمال دمشق، وانتقل أيوب إلى دمشق وأقام بها.

وقال ابن أبي طي: اشتدّ صاحب دمشق في القتال، وصبر نجم الدين أيوب أحسن صبر ،فاتفق أن الماء لما شاء الله من حصن بعلبك غار حتى لم يبق منه شيء، فصار أهل القلعة يستمدّون من البلد، فلما ملك البلد منع من يريد الماء من القلعة، فاشتدّ الأمر فطلبوا الامان والمصالحة، فاستحلف صاحب دمشق نجم الدين وأقر له الثلث الذي كان أتابك قد جعله له فيها وأقره فيها، ولما بلغ ذلك نور الدين خاف أن يفسد عليه أسد الدين إلى صاحب دمشق بحصول نجم الدين عنده،

ومال نور الدين إلى مجد الدين أبى بكر بن الدايه حتى ولاه جميع أموره وجميع مملكته، فشق ذلك على أسد الدين.

قال الرئيس أبو يعلى: لما اتصل خبر موت زنكي بمعين الدين أنر شرع في التأهب والاستعداد لقصد بعلبك، وانتهاز الفرصة فيها بآلات الحرب والمنجنيقات، فنزل عليها وضايقها ولم يمض إلا أيام قلائل حتى قل الماء فيها قلة دعتهم إلى النزول على حكمه، وكان الوالي بها ذا حزم وعقل ومعرفة بالأمور ، فاشترط ما قام له به من اقطاع وغيره، وسلم البلاد والقلعة إليه، ووفى له بما قرر الأمر عليه، وتسلم ما فيه من غلة وآلة في أيام من جمادى الأولى من السنة، وراسل معين الدين الوالي بحمص وتقررت بينه وبينه مهادنة وموادعة تعودان بصلاح الأحوال وعمارة الأعمال، ووقعت مراسلة فيما بينه وبين صلاح الدين بحماه وتقرر بينهما مثل ذلك، ثم انكفأ بعد ذلك إلى البلد عقيب فراغه من بعلبك وترتيب من رتبه لحفظها والاقامة فيها.

قال: ووردت الأخبار في أيام من جمادى الآخرة من السنة بأن جوسلين جمع الأفرنج من كل ناحية وقصد مدينة الرها على غفلة بموافقة من النصارى المقيمين فيها فدخلها واستولى عليها وقتل من فيها من المسلمين، فنهض نور الدين صاحب حلب في عسكره ومن انضاف إليه من التركمان وغيرهم،في زهاء عشرة الآف فارس ووقفت الدواب في الطرقات من شدّة السير، ووافوا البلد وقد حصل ابن جوسلين وأصحابه فيه فهجموا عليهم، ووقع السيف فيهم، وقتل من أرمن الرها والنصارى من قتل ، وانهزم إلى برج يقال له برج الماء فحصل فيه ابن جولسين في تقدير عشرين فارسا من وجوه أصحابه، وأحدق بهم المسلمون وشرعوا في النقب عليهم حتى تعرقب البرج فانهزم ابن جولسين في الخفية من أصحابه وأخذ الباقون، ومحق بالسيف كل من ظفر به من نصارى الرها، واستخلص من كان فيه أسيرا من المسلمين ونهب منها شيء كثير من

المال والاثاث والسبي، وانكفأ المسلمون بالغنائم إلى حلب وسائر الأطراف.

وقال ابن الاثير: لما قتل زنكي كان جوسلين الفرنجي الذي كان صاحب الرها في ولايته غرب الفرات في تل باشر وما جاورها، فراسل أهل الرها، وكان عامتهم من الأرمن ،وواعدهم يوماً يصل إليهم فيه فأجابوه إلى ذلك، فسار في عسكره إليها وملكها، وامتنعت عليه القلعة بمن فيها من المسلمين فقاتلهم وجدّ في قتالهم،فبلغ الخبر نور الدين، وهو يومئذ بحلب فسار إليها بعسكره، فهرب جوسلين ودخل نور الدين مدينة الرها ونهبها وسبى أهلها.وفي هذه الدفعة نهبت وخربت وخلت من أهلها، ولم يبق منهم بها إلاّ القليل، ووصل خبر الفرنج إلى سيف الدين غازي بالموصل، فجهز العساكر إلى الرها، فوصلت وقد ملكها نور الدين، فبقيت بيده ولم يعارضه فيها أخوه سيف الدين.

قال: ومن عجيب ما جرى أن نور الدين أرسل من غنائمها إلى الأمراء، وأرسل إلى زين الدين علي جملة من الجواري فحملن إلى داره، ودخل لينظر اليهنّ ، فخرج وقد اغتسل، وهو يضحك فسئل عن ذلك فقال: لما فتحنا الرها مع الشهيدكان في جملة ما غنمت جارية مالت نفسي إليها، فعزمت على أن أبيت معها، فسمعت منادي الشهيد وهو يأمر باعادة السبي والغنائم، وكان مهيباً مخوفا، فلم أجسر على اتيانها وأطلقتها، فلما كان الآن أرسل إليّ نور الدين سهمي من الغنيمة، وفيه تلك الجارية فوطئتها خوفاً من العود.

قلت: للقيسراني قصيدة يمدح بها جمال الدين وزير الموصل ذكر فيها فتح الرها أوّلها:

أما آن أن يزهق الباطل
وأن ينجز العدّة الماطل

إلى كم يغب ملوك الضلال
سيف بأعناقها كافل
فلا تحفلن بصوت الذئا
ب وقد زأر الأسد الباسل
وهل يمنع الدين الافتى
يصول انتقاما فيستأصل
أبا جعفر أشرقت دولة
أضاء لها بدرك الكامل
فما انصبت لرفع اسمها
فانكما الفعل والفاعل
ليهنك ما افرج النصر عنـ
ـه وما ناله الملك العادل
فقل للحقاق الطريق الطريـ
ـق فقد دلف المقرم البازل
وجاهد في الله حق الجها
د محتسب بالعلى قافل
وهل يمنع السور من طالع
يشأ يعه القدر النازل
فان يك فتح الرهاجة
فساحلها القدس والساحل
فهل علمت علم تلك الديا
ر أن المقيم بها راحل
أرى القمص يأمل فوت الرما
ح ولا بد أن يضرب الشائل
يقوي معاقله جاهدا
وهل عاقل بعدها عاقل
وكيف بضبط بواقي الجها
ت لمن فات حسبته الحاصل

ولابن منير من قصيدة في نور الدين:

ملـــك مـــا أذل بـــالفتـــح أرضـــا
قط إلا أعـــزهـــا اغـــلاقـــه
والـــوهـــا في الـــرهـــا أزجـــى إليهـــا
عـــارضـــا شيـــب الـــدجـــى ابـــراقـــه
جـــأرت جـــأرة إليـــه فحلّ
عطـــلا مـــن اعنـــاقهـــا اعنـــاقـــه
تلـــك بكـــر الفتـــوح فـــالشـــام منهـــا
شـــامـــه والعـــراق بعـــد عـــراقـــه
أيـــن كـــان الملـــوك عـــن وجههـــا الطلـــ
ـــق يـــرينـــا اضـــاءة اطـــلاقـــه
سنـــة سنهـــا أبـــوه بكلـــب الـــرو
م لما أظلـــه ارهـــاقـــه
خـــافقـــا قلبـــه إلى أمـــل عـــا
جلـــه دون نيلـــه إخفـــاقـــه
قسمـــت رايـــة المواضي القسيميـــ
ـــات وابتـــز مـــن لهاه عـــراقـــه
وكـــذا أنـــت يـــا ابنـــه مـــا عـــدا مـــن
خلقـــه فيـــك خصلـــه خـــلاقـــه
وكفـــى البحـــر أنـــه ابـــن سحـــاب
مـــاونـــى سحـــه ولا اصعـــاقـــه
لم يمـــت مـــن ســـددت ثلمتـــه يـــا
مـــن على الـــديـــن كظـــه اشفـــاقـــه
كلما طـــن ذكـــرهـــا منـــه في السمـــ
ـــع تكـــافى النـــافقـــاء نفـــاقـــه
وجهـــاد عـــن حـــوزة الـــديـــن لم يـــأ
ل لـــه ركضـــه ولا انفـــاقـــه

وله فيه من قصيدة أخرى:

بنـــور الـــديـــن روض كـــل محل
مـــن الـــدنيـــا وجـــدّد كـــل بـــال
أقـــام على ثنيـــة كـــل خـــوف
سهـــادا بـــات يكـــلأ كـــل كـــال
وصـــوّب عـــدلـــه في كـــل أوب
فعـــوّض عـــاطـــلا منـــه بحـــال
ينكـــس رأيـــه رأي المحـــامـــي
ويقتـــل خـــوفـــه قبـــل القتـــال
لقـــد أحصـــدت لـــلاســـلام عـــزا
يفـــوت سنـــامـــه يـــد كـــل قـــال
وأصبحـــت العـــواصـــم ملحفـــات
عصـــامـــا غير منتكـــث الحبـــال

فصل

وقفت على توقيع كتب في ذي القعدة سنة إحدى وأربعين عن خليفة مصر يومئذ وهو الملقب بالحافظ وعليه علامته ونصه:

الحمد للّه رب العالمين

إلى القاضي الأشرف أبي المجد علي بن الحسن بن الحسين البيساني، وهو والد القاضي الفاضل، وكان يومئذ متولي القضاء والحكم بمدينة عسقلان.

قد انتهى إلى حضرة أمير المؤمنين أن قوما من أهل ثغر عسقلان حماه اللّه قد صاروا يؤدون توقيعات بقبول أقوالهم من غير تزكية من شهوده المعروفين بالتزكية لهم، مع كونهم غيرمستوجبين لشهادة، ولامستحقين لسماع القول، فأنكر أمير المؤمنين ذلك من فعلهم، وخرج عالي أمره بأن لايسمع قول شاهد، ولايتقدّم لخطابة ولا لصلاة بالناس ولا لتلاوة في

موضع شريف إلاّ من زكاه أعيان شهود الثغر المحروس، وهم فلان وفلان وعدّ ثمانية أنفس :عبد الساتر بن عبد الرحمن، عبد العزيز بن مفضل، علي بن قريش، أحمد بن حسن، أحمد بن علي، عبد الرحمن بن محسن، أسامة بن عبد الصمد، علي بن عبد الله.

قلت : وهذا أحسن ما يؤرخ عن إمام تلك الدولة المباينة للشريعة على ما سيأتي إن شاء اللّه تعالى.

وقال الرئيس أبويعلى: وفي شوال من سنة إحدى وأربعين ترددت المراسلات بين نور الدين ومعين الدين أنر إلى أن استقرت الحال بينهما على أجمل صفة وأحسن قضية، وانعقدت الوصلة بين نور الدين وبين ابنة معين الدين، وتأكدت الأمور على ما اقترح كل منهما، وكتب كتاب العقد في دمشق بمحضر من رسل نور الدين في الثالث والعشرين من شوال، وشرع في تحصيل الجهاز، وعند الفراغ منه توجهت الرسل عائدة إلى حلب في صحبتهم ابنة معين الدين ومن في جملتها من خواص الأصحاب في النصف من ذي القعدة.

قال: وتوجه معين الدين إلى ناحية صرخد وبصرى بالخيل والرجل وآلات الحرب، ونزل على صرخد وبها المعروف بألتونتاش غلام أمين الدولة كمشتكين الأتابكي الذي كان واليها أولا.

قلت: هو الذي تنسب إليه المدرسة الامينية قبلي الجامع بدمشق، قال: وكانت نفس التونتاش قد حدثته لجهله أنه يقاوم من يكون مستوليا على دمشق، وأن الأفرنج يعينونه على مراده، وكان قد خرج من حصن صرخد إلى ناحية الفرنج للاستنصار بهم، وتقرير أحوال الفساد معهم فحال معين الدين بينه وبين العود إلى أحد الحصنين، وراسل نور الدين في انجاده على الكفرة، فأجابه وكان مبرزاً بظاهر حلب في عسكره فثنى إليه

الأعنة وأجدّ المسير، فوصل إلى دمشق في التاسع والعشرين من ذي الحجة، فأقام أياما يسيرة .

ودخلت سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة

فتوجه نور الدين نحو صرخد، ولم يشاهد أحسن من عسكره وهيئته وعدته ووفور عدته، واجتمع العسكران، وأرسل من بصرخد إليهما يلتمسون الأمان والمهلة أياما، وتسلم المكان، وكان ذلك منهم على سبيل المغالطة والمخاتلة إلى أن يصل عسكر الأفرنج لترحيلهم، وقضى الله تعالى وصول من أخبر بتجمع الفرنج واحتشادهم ونهوضهم في فارسهم وراجلهم مجدين السير إلى ناحية بصرى، وعليها فرقة وافرة من العسكر محاصرة لها، فنهض العسكر في الحال إلى ناحية بصرى فسبقوا الفرنج إليها فحالوا بينهم وبينها، ووقعت العين على العين فانهزم الكفار وولوا الأدبار، وتسلم معين الدين بصرى، وعاد إلى صرخد فتسلمها، وعاد العسكران إلى دمشق فوصلاها يوم الأحد السابع والعشرين من المحرم.

وفي هذا الوقت وصل ألتونتاش الذي خرج من صرخد إلى الفرنج بجهله وسخافة عقله إلى دمشق من بلاد الفرنج من غير أمان ولاتقرير واستئذان توهما منه أنه يكرم ويصطنع بعد الاساءة القبيحة والارتداد عن الاسلام، فاعتقل في الحال وطالبه أخوه خطلخ بما جناه عليه من سمل عينيه، وعقد لهما مجلس حضره الفقهاء والقضاة وأوجبوا عليه القصاص فسمل كما سمل أخاه وأطلق إلى دار له بدمشق فأقام بها.

قلت :وقد ذكر ابن منير وقعة بصرى هذه وغيرها من الوقعات التي يأتي ذكرها في قصيدة قد تقدم بعضها منها:

أي شأن أدركت يا نور دين الـ
ـله أعيى على الملوك لحاقه

نطـــق الحاســـدون بـــالعجـــز عـــن ملـــ
ـــــك محلى بـــــالنيرات نطـــــاقـــــه
غـــض أبصـــارهـــم لحاق جـــواد
ليـــس إلا إلى المعـــالي سبـــاقـــه
ســـل بصيراكـــم أعتقـــت يـــوم بصرى
مـــن أســـارى الموت الـــزؤام عتـــاقـــه
كـــم عـــرام على العـــريمـــة شبـــت
ضـــاق منـــه على الصليـــب خنـــاقـــه
ولكـــــم هبـــــوة بهاب واختيـــــ
ـــها لها صكـــت الأســـارى ربـــاقـــه
بســـط الـــذل فـــوق بسطـــة بـــاســـو
طـــا ولكـــن طـــواه عنـــه ارتفـــاقـــه

وفي هذه السنة ولد ببعلبك الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب، وقيل في سنة فتح زنكي الرها.

قال أبويعلى : وفي ليلة الجمعة الثالث من ربيع الأوّل توفى الفقيه شيخ الاسلام أبو الفتح نصر اللّه بن محمد بن عبد القوي المصيصي بدمشق، كان بقية الائمة الفقهاء المفتين على مذهب الامام الشافعي، ولم يخلف بعده مثله.

وقال : وفي جمادى الآخرة تقرّرت ولاية حصن صرخد للأمير مجاهد الدين بزان بن مامين على مبلغ من المال والغلة، وشروط وأيمان دخل فيها وقام بها، واستبشر أهل تلك الناحية لما هو عليه من حب الخير والصلاح والتدين والعفاف.

قال: وفي الحادي والعشرين من شوّال وهو مستهل نيسان أظلم الجوّ ونزل غيث ساكن، ثم أظلمت الأرض في وقت العصر ظلاماً شديداً بحيث كان ذلك كالغدوة بين العشائين، وبقيت السماء في عين

الناظرين إليها كصفرة الورس، وكذلك الجبال وأشجار الغوطة وكل ما ينظر إليه من حيوان وجماد ونبات، ثم جاء في أثر ذلك من الرعد القاصف والبرق الخاطف والهدّات المزعجة والرجفات المفزعة ماارتاع لها الشيب والشبان فكيف الولدان والنسوان، وقلقت لذلك الخيول في مرابطها، وبقي الأمر على هذه الحال إلى وقت العشاء الآخرة، ثم سكن بقدرة اللّه تعالى، وأصبح على الأرض والاشجار وسائر النبات غبار في رقة الهواء بين البياض والغبرة.

قال ابن الاثير: وفي سنة اثنتين وأربعين فتح نور الدين أرتاح بالسيف وحصن بارة وبصرفوث وكفر لاثا، وكان الفرنج قد طمعوا وظنوا أنهم بعد قتل الشهيد يستردّون ما أخذ منهم، فلما رأوا من نور الدين هذا الجدّ علموا أنّ ما أمّلوه بعيد.

فصل

في نزول الفرنج على دمشق ورجوعهم وقد خذلهم اللّه عنها

قال الرئيس أبو يعلى: وفي هذه السنة تواصلت الاخبار من ناحية القسطنطينية وبلاد الفرنج والروم وما والاها بظهور ملوك الافرنج من بلادهم منهم:الألمان والفنش وجماعة من كبارهم في العدد الذي لايحصر لقصد بلاد الاسلام بعد أن نادوا في سائر بلادهم ومعاقلهم: النفير النفير إليها والإسراع نحوها، وخلوا بلادهم وأعمالهم خالية شاغرة من حماتها والحفظة لها، ثم استصحبوا من ذخائرهم وأموالهم وعددهم الشيء الكثير الذي لايحصى بحيث يقال إن عدّتهم ألف ألف من الرجالة والفرسان، ويقال أكثر من ذلك، وغلبوا على أعمال قسطنطينية واحتاج ملكها إلى الدخول في مداراتهم ومسالمتهم والنزول على أحكامهم، وحين شاع خبرهم وأشتهر أمرهم شرعت ولاة الأعمال

المصاقبة لهم والأطراف الاسلامية القريبة منهم في التأهب للمدافعة لهم والاحتشاد على المجاهدة فيهم، وقصدوا منافذهم ودروب معابرهم لكي يمنعوهم من العبور والنفوذ إلى بلاد الاسلام، وواصلوا شنّ الغارات على أطرافهم واستحرّ القتل فيهم والفتك بهم إلى أن هلك منهم العدد الكثير، وحلّ بهم من عدم القوت والعلوفات والمير وغلاء السعر إذا وجدوه ما أفنى الكثير منهم بالجوع والمرض، ولم تزل أخبارهم تتواصل بهلاكهم وفناء أعدادهم إلى أواخر سنة إثنتين وأربعين بحيث سكنت النفوس بعض السكون.

ودخلت سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة

وتواترت الأخبار بوصول مراكب الفرنج وحصولهم على سواحل الثغور الساحلية صور وعكا، واجتماعهم مع من بها من الفرنج، ويقال أنه بعد ما فني منهم بالقتل والمرض والجوع ، وصل تقدير ثلاثمائة ألف، وقصدوا البيت المقدس، وقضوا حجهم وعاد من عاد منهم إلى بلادهم في البحر وقد هلك منهم بالموت والمرض الخلق العظيم، وهلك من ملوكهم من هلك وبقي الألمان أكبر ملوكهم ومن هو دونه، واختلفت الآراء بينهم فيما كانوا يقصدون منازلته من البلاد الاسلامية إلى أن استقرت الحال على منازلتهم دمشق، وبلغ ذلك معين الدين فاستعد لحربهم فجاؤوا في تقدير خمسين ألفا ،ودنوا من البلاد ثم قصدوا المنزلة المعروفة بنزول العساكر فيها فصادفوا الماء مقطوعا ،فقصدوا ناحية المزة فخيموا عليها لقربهم من الماء ، وزحفوا إلى البلاد بخيلهم ورجلهم ووقف المسلمون بازائهم في يوم السبت سادس ربيع الأوّل، ونشبت الحرب بين الفريقين واجتمع عليهم من الأعمال الأجناد والأتراك والفتاك وأحداث البلد والمطوّعة والغزاة الجمّ الغفير، واستظهر الكفار على المسلمين بكثرة الأعداد وغلبوا على الماء وانتشروا في البساتين وخيموا

فيها، وقربوا من البلد وحصلوا منه بمكان لم يتمكن أحد من العساكر قديما وحديثا منه ،واستشهد في هذا اليوم الفقيه الإمام يوسف الفندلاوي المالكي رحمه الله قريب الربوة على الماء لوقوفه في وجوههم وترك الرجوع عنهم اتبع أوامر اللّه تعالى في كتابه الكريم، وقال: بعنا واشترى، وكذلك عبد الرحمن الحلحولي الزاهد رحمه الله جرى أمره هذا المجرى.

فصل

قلت: وذكر الأمير أسامة بن منقذ في كتاب الاعتبار أن ملك الالمان الفرنجي لما وصل الشام اجتمع إليه كل من بالشام من الأفرنج، وقصد دمشق فخرج عسكرها وأهلها لقتالهم، وفي جملتهم الفقيه الفندلاوي المالكي والشيخ الزاهد عبد الرحمن الحلحولي رحمهما اللّه، وكانا من خيار المسلمين، فلما قاربوهم قال الفقيه عبد الرحمن: أما هؤلاء الروم؟ قال : بلى قال: فإلى متى نحن وقوف؟ قال: سر على اسم اللّه فتقدّما فقاتلا حتى قتلا في مكان واحد رحمهما اللّه تعالى.

ثم قال أبو يعلى: وشرعوا في قطع الأشجار والتحصن بها وهدّوا الفطائر، وباتوا تلك الليلة على هذه الحال قد لحق الناس من الارتياع لهول ما شاهدوه والروع بما عاينوه ما ضعفت به القلوب وحرجت معه الصدور وباكروا الظهور إليهم في غد ذلك اليوم وهو الأحد، وزحفوا إليهم ووقع الطراد بينهم واستظهر المسلمون عليهم، وأكثروا القتل والجراح فيهم، وأبلى الأمير معين الدين في حربهم بلاء حسناً، وظهر من شجاعته وصبره وبسالته ما لم يشاهد في غيره، بحيث لايني في جهادهم ولايثني عن ذيادهم، ولم تزل رحى الحرب دائرة بينهم وخيل الكفار محجمة عن الحملة المعروفة لهم حتى تتهيأ الفرصة لهم إلى أن مالت الشمس إلى الغروب وأقبل الليل وطلبت النفوس الراحة، وعاد كل منهم

إلى مكانه وبات الجند بإزائهم، وأهل البلد على أسوارهم للحرس والاحتياط، وهم يشاهدون أعداءهم بالقرب منهم.

وكانت المكاتبات قد نفذت إلى ولاة الأطراف بالاستصراخ والاستنجاد، وجعلت خيل التركمان تتواصل ورجالة الأطراف تتابع، وباكرهم المسلمون وقد قويت شوكتهم ونفوسهم، وزال عنهم روعهم وثبتوا بازائهم وأطلقوا فيهم السهام ونبل الجرخ بحيث تقع في مخيمهم في راجل أو فارس أو فرس أو جمل، ووصل في هذا اليوم من ناحية البقاع وغيرها رجالة كثيرة من الرماة فزادت بهم العدّة وتضاعفت العدّة، وانفصل كل فريق إلى مستقره في هذا اليوم وباكروهم من غد يوم الثلاثاء،وأحاطوا بهم في مخيمهم، ، وقد تحصنوا بأشجار البساتين وأفسدوها رشقا بالنشاب وحذفا بالاحجار، وقد احجموا عن البروز وخافوا وفشلوا ولم يظهر منهم أحد، وظنّ أنهم يعملون مكيدة أو يدبرون حيلة ولم يظهر منهم إلا النفر اليسير من الخيل والرجل على سبيل المطاردة والمناوشة خوفاً من المهاجمة، إلى أن يجدوا لحملتهم مجالا وليس يدنو منهم أحد إلاّ صرع برشقة أو طعنة، وطمع فيهم نفر كثير من رجالة الأحداث والضياع وجعلوا يقصدونهم في المسالك ،وقد أمنوا فيقتلون من ظفروا به ويحضرون رؤوسهم لطلب الجوائز عليها ، وحصل من رؤوسهم العدد الكثير، وتواترت إليهم أخبار العساكر الاسلامية بالمسارعة إلى جهادهم واستئصال شأفتهم فأيقنوا بالهلاك والبوار وحلول الدمار، وأعملوا الآراء بينهم فلم يجدوا لنفوسهم خلاصا من الشبكة التي حصلوا فيها غير الرحيل، فرحلوا سحر يوم الأربعاء التالي مفلولين.

وحين عرف المسلمون ذلك برزوا إليهم في بكرة هذا اليوم وسارعوا في آثارهم بالسهام بحيث قتلوا في أعقابهم من الرجال والخيول والدواب العدد الكثير، ووجدوا في آثار منازلهم وطرقاتهم من دفائن قتلاهم وخيولهم مالا عدد له ولاحصر يلحقه بحيث لها أراييح من جيفهم تكاد

تصرع الطيور في الجوّ وكـانوا قد أحـرقوا الربـوة والقبة الممدوديـة في تلك الليلة، واستبشر الناس بهذه النعمة التي أسبغها اللّه عليهم ، وأكثروا من الشكر له تعـالى على ما أولاهم من إجـابة دعائهم الـذي واصلوه في أيام هذه الشدّة فللّه الحمد على ذلك والشكر.

واتفق عقيب هذه الـرحمة اجتماع معين الدين مع نور الديـن عند قربة من دمشق للانجاد لها.

وقال ابن الاثير: خرج ملك الالمان من بـلاد الافرنج في جيوش عظيمة لاتحصى كثرة من الفـرنج إلى بلاد الشام ، فاتفق هو ومـن بساحل الشام من الفـرنج فاجتمعـوا وقصدوا مدينـة دمشق ونـازلوها ، ولايشـك ملك الالمان إلا أنه يملكها وغيرها لكثرة جموعه وعسكره.

قال: وهذا النوع من الفرنج هـو أكثرهم عددا وأوسعهم بلاداً وملكهم أكثر عددا وعددا، وإن كان غير ملكهـم أشرف منه عندهم وأعظم محلا، فلما حاصروا دمشق، وبها صاحبها مجير الدين ابـق بن محمد بن بوري بن طغتكين، وليـس لـه مـن الأمر شيء، وإنما كـان الأمـر إلى مملـوك جـدّه طغتكين، وهو معين الديـن أنر، فهو كان الحاكم والمدبـر للبلد والعسكر، وكـان عـاقلا دينـا خيراً أحسـن السيرة، فجمـع العسكر وحفـظ البلـد، وحصرهم الفرنج وزحفوا إليهم سادس ربيع الأوّل، فخرج العسكر وأهل البلد لمنعهـم، وكان فيمن خـرج الشيخ الفقيه حجـة الدين أبـو الحجاج يوسف بن دونـاس المغربي الفندلاوي شيخ المالكية بدمشـق، وكان شيخا كبيرا زاهدا عـابدا خرج راجـلاً، فرأى معين الـدين فقصده وسلـم عليه، وقال له: ياشيخ أنت معذور، ونحـن نكفيك، وليس بك قوة على القتال، قال: قد بعـت واشترى فلا نقيله ولا نستقيله، يعني قـول اللّه تعالى:(إن اللّه اشترى مـن المؤمنين أنفسهم وأموالهم بـأن لهم الجنة(٥٣)الآية وتقدّم فقاتل حتى قتل رحمه اللّه عند النيرب شهيداً.

وقوي أمر الفرنـج وتقدموا فنزلوا بالميـدان الأخضر، وضعف أهل البلد عن ردّهم عنه، وكـان معين الدين قد أرسل إلى سيف الـدين يستغيث به ويستنجده ويسأله القـدوم عليه ويعلمه شدّة الأمر، فجمع سيـف الدين عساكره وسـار مجداً إلى مدينة حمص،وأرسل إلى معين الدين يقـول له: قد حضرت ومعـي كل مـن يطيق حمل السـلاح مـن بلادي، فـإن أنا جئـت إليك ولقينـا الفرنج وليسـت دمشق بيد نـوابي وأصحابي وكانـت الهزيمة والعياذ بالله علينا لايسلم منا أحد لبعـد بلادنا عنا، وحينئذ تملك الفرنج دمشق وغيرهـا، فإن أردتم أن ألقـاهم وأقاتلهـم فتسلم البلد إلى مـن أثق إليه، وأنا أحلف لك إن كانت النصرة لنـا على الفرنج أنني لاآخذ دمشق ولا أقيم بها إلا مقـدار ما يـرحل العدوّ عنهـا، وأعود إلى بـلادي ،فماطله معين الديـن لينظر ما يكـون من الفرنـج، فأرسل سيـف‌الدين‌إلى الفـرنج الغرباء يتهـدّدهم ويعلمهم أنه على قصدهم إن لم يـرحلوا ، وأرسل معين الديـن إليهم أيضا يقول لهم: قـد حضر ملك الشرق ومعه من العسـاكر مالا طـاقة لكـم به، فـإن أنتم رحلتـم عنا والاسلمـت البلد إليـه وحينئذ لاتطمعون في السـلامة منـه، وأرسل إلى فـرنجَ الشـام يخوفهم مـن أولئك الفرنـج الخارجين إلى بلادهـم ويقول لهم: أنتم بين أمـرين مـذمومين إن ملك هـؤلاء الفرنج الغـرباء في دمشق لايبقـون عليكم مـا بأيديكـم من البـلاد، وإن سلمت أنـا دمشق إلى سيـف الديـن فأنتـم تعلمون أنكـم لاتقدرون على منعه من البيت المقدس، وبذل لهم أن يسلم إليهم بانياس إن رحلـوا ملك الالمان عـن دمشـق، فأجـابوه إلى ذلـك وعلمـوا صدقـه واجتمعوا بملـك الالمان وخوفوه مـن سيف الدين وكثـرة عساكره وتتـابع أمداده وأنه ربما ملك دمشق، فلا يبقى لهم معـه مقام بالساحل، فأجابهم إلى الـرحيل عـن دمشق فـرحل ورحـل فرنـج الساحـل وتسلموا حصـن بانياس مـن معين الدين وبقي معهـم حتى فتحه نور الـدين محمود رحمه الله، كما سنذكره.

فصل

قلت: وذكر الحافظ أبو القاسم بن عساكر رحمه الله في تاريخه أن الفقيه الفندلاوي رؤي في المنام فقيل له: أين أنت؟ قال: في جنات عدن (على سرر متقابلين)[٤٥] وقبره الآن يزار بمقابر باب الصغير من ناحية حائط المصلى، وعليه بلاطة كبيرة منقورة فيها شرح حاله، وأما عبد الرحمن الحلحولي فقبره في بستان الشعباني في جهة شرقه، وهو المسجد المحاذي لمسجد شعبان المعروف الآن بمسجد طالوت، وكان مقامه في حياته في ذلك المكان رحمه الله، وقرأت قصيدة في شعر أبي الحكم الاندلسي شرح فيها هذه القصة منها:

بشطي نهر داريا
أمور ما يواتينا
وأقوام رأوا سفك
دماء في جلق دينا
أتانا مائتا ألف
عديداً أو يزيدونا
فبعضهم من أندلس
وبعض من فلسطينا
ومن عكا ومن صور
ومن صيدا وتبنينا
إذا أبصرتهم أبصر
ت أقواما مجانينا
وجازوا المرج والتعديل
أيضا والميادينا
تخالهم وقد ركبوا
فطائرها (٥٥) جرادينا
وبين خيامهم ضموا
خنازير والقرابينا

ورايـــــات وصلبـــــانـــــا
على مسجـــــد خـــــاتـــــونـــــا

وقلنـــــا إذ رأينـــــاهـــــم
لعـــــل اللّـــــه يكفينـــــا
سما لهم معين قـــــد
أعـــــان الخلـــــق والـــــدينـــــا
وفتيـــــان تخالهم
لـــــدى الهيجـــــاء شيـــــاطينـــــا
فـــــولـــــوا يطلبـــــون المر
ج مـــــن شرقـــــي جسرينـــــا
ولكـــــن غـــــادروا اليـــــأ
س تحت التراب مـــــدفـــــونـــــا
وشيخـــــا فنـــــدلاويـــــا
فقيهـــــا يعضـــــد الـــــدينـــــا
وفتيـــــانـــــا تفـــــانـــــوا مـــــن
دمشـــــق نحـــــو سبعينـــــا
ومنهـــــم مـــــائتـــــا علـــــج
وخيـــــل نحـــــو تسعينـــــا
وبـــــاقيهـــــم إلى الآ
ن مـــــن القتـــــل يفـــــرّونـــــا

وللعرقلة حسان في مدح مجير الدين صاحب دمشق حينئذ قصيدة ذكر فيها هؤلاء الفرنج أولها:

عـــرّج على نجـــد لعلـــك منجـــدي
بنسيمهـــا وبـــذكـــر سعـــدى مسعـــدي

يقول فيها:

مـــن قـــاتـــل الافـــرنـــج دينـــا غيره
والخيـــل مثـــل السيـــل عنـــد المشهـــد

ردّالامـــان بكـــل نـــدب بـــاســـل
ومـــن الجيـــاد بكـــل نهد أجـــرد
ومـــن السيـــوف بكـــل عضـــب أبيـــض
زمـــن العجـــاج بكـــل نقـــع أســـود
حتـــى لـــوى الاســـلام تحت لـــوائه
وغـــدا بحمـــده مـــن شريعـــة أحمد

قرأت في ديـوان محمد بـن نصر القيسراني قصيدة في مـدح تاج الملـوك بـوري جدّ مجير الـدين، أنشـده إياهـا عند كسرة الفـرنج على دمشـق في أواخر سنـة ثلاث وعشريـن وخمسمائة، وهي واقعة تشبـه الواقعـة في زمن مجير الدين أوّل القصيدة:

الحق مبتهـــج والسيـــف مبتســـم
ومـــال اعـــداء مجير الـــديـــن مقتســـم
قـــدت الجيـــاد وحصنـــت البـــلاد وأمّـــ
ـــنت العبـــاد فـــأنـــت الحل والحرام
وجئـت بـالخيـل مـن أقصـى مـرابطهـا
معـــاقـــد الحزم في أوســـاطهـــا الحزم
حتـــى إذا مـــا أحـــاط المشركـــون بنـــا
كـــالليـــل يلتهـــم الـــدنيـــا لـــه ظلـــم
وأقبلـــوا إلا من الاقبال فـي عـــدد
يـــؤود حـــاسبـــه والاعيـــاء والســـأم
أجـــريـــت بحـــرا مـــن الماذي معتكـــرا
أمـــواجـــه بـــأواسي اليـــأس تلتطـــم
وســـت جنـــدك والـــرحمن يكلـــؤه
سيـــاســـة مـــا يعفـــي أثـــرهـــا نـــدم
وقفـــت في الجيـــش والاعـــلام خـــافقـــة
بـــالنصر كـــل قنـــاة فـــوقهـــا علـــم
يحوطـــك اللـــه صـــونـــا عـــن عيـــونهم
واللـــه يعصـــم مـــن بـــاللـــه معتصـــم

حتـــى إذا بـــدت الآراء ضـــاحكـــة
وأقبلـــت أوجـــه الاقبـــال تبتســـم
اتبعـــت جـــنّ سرايـــاهـــم مضمـــرة
فيهـــا نجـــوم إذا جـــدّ الـــوغـــى رجموا
والنصر دان وخيـــل اللـــه مقبلـــة
تـــرجـــو الشهـــادة في الهيجـــاء تغتنـــم
صـــاب الغمام عليهـــم والسهـــام معـــا
فما دروا أيما الهطـــالـــة الـــديـــم
سروا الينتهبـــوا الاعمار فـــانتهبـــوا
قتـــلا ويغتنمـــوا الامـــوال فـــاغتنمـــوا
وأقبلـــت خيلنـــا تـــردى بخيلهـــم
مجنـــوبـــة وعلى أرمـــاحنـــا القمـــم
وأدبـــر الملـــك الطـــاغـــي يـــزعـــزعـــه
حـــرّ الاسنـــة وهـــو البـــارد الشيـــم
وافـــوا دمشـــق فظنـــوا انها جـــدة
ففـــارقـــوهـــا وفي أيـــديهم العـــدم
وأيقنـــوا مـــع ضيـــاء الصبـــح أنهم
إن لم يـــزولـــوا سراعـــا زالـــت الخيـــم
فغـــادروا أكثـــر القـــربـــان وانجلفـــوا
وخلفـــوا أكبر الصبيـــان وانهزمـــوا
مستسلمين لأيـــدي المسلمين وقـــد
أغـــرى الفنـــا بتمادي خطفهـــم نهم
لا يملـــك الجسـم دمعـا عـن مقـاتلـه
كـــأنـــه حين يغشـــاه الـــردى صنـــم
وحـــاولـــوا المسجـــد الأدنـــى فما عبرت
عـــن مسجـــد القـــدم الأقصـــى لهم قـــدم

فصل

قال ابن الأثير: لما رحل الفرنج عن دمشق سار معين الدين أنر إلى بعلبك، وأرسل إلى نور الدين وهو مع أخيه سيف الدين يسأله أن يحضر عنده، فاجتمعا فوصل إليهما كتاب القمص صاحب طرابلس يشير عليهما بقصد حصن العريمة وأخذه ممن فيه من الفرنج، وكان سبب ذلك أن الفنش صاحب صقلية خرج مع ملك الالمان إلى الشام وتغلب على العريمة وأخذها من القمص، وأظهر أنه يريد أخذ طرابلس منه أيضا، وجدّ هذا الذي ملك العريمة هو الذي غزا إفريقية وفتح مدينة طرابلس الغرب، فلما استولى هذا على العريمة كاتب القمص نور الدين ومعين الدين في قصده، فسارا إليه مجدّين فصبحاه، وكتبا إلى سيف الدين يستنجدانه، ويطلبان منه المدد فأمدّهما فحصروا الحصن وبه ابن الفنش، ونقبوا السور فأذعن الفرنج واستسلموا وألقوابأيديهم فملك المسلمون الحصن، وأخذوا كل من به من رجل وصبي وامرأة، وفيهم ابن الفنش وأخربوا الحصن ، وعادوا إلى سيف الدين، وافتتح نور الدين أيضا باسوطا وهاب.

وقال الرئيس أبو يعلى: قتل أكثر من كان فيه، يعني في حصن العريمة، وأسروا وأخذوا ولد الملك وأمه ونهب ما فيه من العدد والخيول والأثاث وعاد عسكر سيف الدين إلى مخيمه بحمص ونور الدين عاد إلى حلب ومعه ولد الملك وأمه ومن أسر معهما، وانكفأ معين الدين إلى دمشق.

قال: ووردت الأخبار في رجب من ناحية حلب بأن نور الدين صاحبها كان قد توجه في عسكره إلى ناحية الاعمال الأفرنجية وقصد أفامية وظفر بعدّة من الحصون والمعاقل الأفرنجية وبعدّة وافرة من الأفرنج، وأن صاحب أنطاكية جمع الفرنج وقصده على حين غفلة منه

فنال من عسكره وأثقاله وكراعه ما أوجبته الاقدار النازلة، وانهزم بنفسه وعسكره وعاد إلى حلب سالما في عسكره لم يفقد منه إلاّ النفر اليسير بعد قتل جماعة وافرة من الافرنج، وأقام بحلب أياما بحيث جدّد ما ذهب له من اليزك، وما يحتاج إليه من آلات العسكر، وعاد إلى منزله وقيل لم يعد.

وذكر ابن أبى طي أن أسد الدين لما كان في نفسه على نور الدين من تقديم ابن الداية عليه لم ينصح يومئذ وهي وقعة يغرا، ومرّ به نو الدين فقال له: ما هذا الوقوف والغفلة في مثل هذا الوقت والمسلمون قد انكسروا ؟فقال: ياخوند ايش ننفع نحن إنما ينفع مجد الدين أبو بكر فهو صاحب الأمر، فاستدرك نور الدين ذلك وطيب قلب أسد الدين بعد ذلك، وألزم مجد الدين أن يعرف لأسد الدين حقه، وأصلح بينهما.

قال: وقتل في هذه الكسرة شاهنشاه بن أيوب أخو الملك الناصر، وقيل في كسرة البقيعة.

قلت: وهو والد عز الدين فرخشاه وتقي الدين عمر والست عذرا المنسوب إليها العذراوية داخل باب النصر بدمشق، وقبره الآن بالتربة النجمية جوار المدرسة الحسامية بمقبرة العوينة ظاهر دمشق رحمهم اللّه.

قلت: ولابن منير من قصيدة تقدّمت اعتذارا عما جرى في هذه الغزاة قال:

لم يشنه من ماء يغرا إن فرّ إلا
شابات ذاد عنها انذلاقه
كان فيها ليث العرين حمى الأ
شبال منه غضبان كالنار ماقه

وشبيه النبي يوم حنين
إذ تلافا أدواءهم دريا قه

- ٧٦٥١ -

وهـــي الحرب فحلهـــا بحســـن الكـــــ
ـــــرة إن عـــض بـــأسهـــا الانيـــاقـــه

obeikandl.com

فصل

وقال ابن الأثير: وفي سنة ثلاث وأربعين أيضا سار نور الدين إلى بصرى وقد اجتمع بها الفرنج في قضهم وقضيضهم وقد عزموا على قصد بلاد الاسلام، فالتقى بهم هنالك واقتتلوا اشدّ قتال، ثم أنزل اللّه نصرة على المسلمين، وانهزم الفرنج وكانوا بين قتيل وأسير.

وفي هذه الوقعة يقول القيسراني من قصيدة أولها:

ونيرات الملك وهاجة
وطالع الدولة مسعود
وصارم الاسلام لاينثني
إلاّ وشلو الكفر مقدود
مناقب لم تك موجودة
إلاّ ونور الدين موجود
مظفر في درعه ضيغم
عليه تاج الملك معقود
نال المعالي مالكا حاكما
فهو سليمان وداود
ترتشف الأفواه أسيافه
إن رضاب العز مورود
وكم له من وقعة يومها
عند ملوك الشرك مشهود
والقوم إما مرهق صرعة
أو موثق بالقدّ مشدود
حتى إذا عادوا إلى مثلها
قالت لهم هيبته عودوا
طالب بثار ضمنته الظبى
فكل ما يضمن مردود

والكـــرّ والفـــرّ سجـــال الـــوغـــى
فطـــــارد طـــــورا ومطـــــرود
وإنما الافـــرنـــج مـــن بغيهـــا
عـــادوا وقـــد عـــادلها هـــود
قـــد حصحـــص الحق فيما جـــاحـــد
في قلبـــه بـــأســـك مجحـــود
فكـــل مصر بـــك مستفتـــح
وكـــل ثغـــر بـــك مســـدود

وقال أيضا قصيدة في نور الدين: وأنشده إياها بظاهر حلب، وقد كسر الفرنج على يغرا،وهزمهم إلى حصن حارم، وقد كانت الفرنج هزمت المسلمين أوّلا بهذا الموضع أوّلها:

تفـــي بضمانها البيـــض الحداد
وتقضي دينهـــا السمـــر الصعـــاد
وتـــدرك ثـــارهـــا مـــن كـــل بـــاغ
فـــوارس مـــن عـــزائمهـــا الجلاد
ويغشـــى حـــومـــة الهيجـــا همام
يشـــدّ بضبعـــه السبـــع الشـــداد
أظنـــوا أن نـــار الحرب تخبـــو
ونـــور الـــديـــن في يـــده الـــزنـــاد
وجنـــد كـــالصقـــور على صقـــور
إذا انقضـــوا على الابطـــال صـــادوا
إذا اخفـــوا مكيـــدتهم أخـــافـــوا
وإن أبـــدوا عـــداوتهم أبـــادوا
ونصرة دولـــة حـــاميـــت عنهـــا
وهـــل يخشـــى وأنـــت لها عماد
وإن تتلى القـــوافي مـــا تلتـــه
بـــإنـــب مـــا يـــوّنبهـــا سنـــاد

جـــرت بـــالنصر أقـــلام العـــوالي
وليـــس ســـوى النجيـــع لها مـــداد
وطـــالـــت أروس الأعـــلاج خصبـــا
فنـــادى السيـــف قـــد وقـــع الحصـــاد
أحطـــت بهم فكـــان القتـــل صبرا
ولا طعـــن هنـــاك ولا طـــراد
ولـــلابـــرنـــس فـــوق الـــرمـــح رأس
تـــوســـد والسنـــان لـــه وســـاد
تـــرجـــل للســـلام ففـــرســـوه
وليـــس ســـوى القنـــاة لـــه جـــواد
غضيـــض المقلتين ولا نعـــاس
وغـــايـــرهـــا وليـــس بـــه سهـــاد
فسر واستـــوعـــب الـــدنيـــا فتـــوحـــا
فـــلا هضـــب هنـــاك ولا وهـــاد
وزر ببنـــي الـــوغـــى مثـــوى حبيـــب (٥٦)
فما عـــن بـــاب مسلمـــه ذيـــاد
ولا في بـــاب فـــارس غير ثكلى
بفـــارسهـــا يضيء بها الحداد
لأنطـــاكيـــة يحمـــي ذراهـــا
وقـــد دانـــت لسطـــوتـــك البـــلاد
واذعنـــت الممالـــك واستجـــابـــت
ملبيـــة لـــدعـــوتـــك العبـــاد

قلت: ووقعة إنبّ هذه كانت عظيمة، وقد أكثر كذلك الشعراء لها وسيأتي ذكرها قريبا إن شاء اللّه تعالى.

فصل

قال أبو يعلى التميمي: وفي رجب من هذه السنة ورد الخبر من ناحية حلب بأن صاحبها نور الدين ابن أتابك أمر بابطال حي على خير العمل في أواخر تأذين الغداة، والتظاهر بسب الصحابة، وانكر ذلك إنكارا شديداً، وساعده على ذلك جماعة من أهل السنة بحلب، وعظم هذا الأمر على الاسماعيلية وأهل التشيع وضاقت له صدورهم وهاجوا وماجوا ثم سكنوا وأحجموا للخوف من السطوة النورية المشهورة، والهيبة المحذورة.

قلت:وأنشده ابن منير في رمضان:

فداك من صام ومن أفطرا
ومن سعى سعيك أو قصرا
وما الورى أهلا فتفدى بهم
وهل يوازي عرض جوهرا
عدل تساوى تحت أكنافه
مطافل العين واسد الشرى
يا نور دين اللّه كم حادث
دجى وأسفرت له فانسرى
وكم حمى للشرك لا يهتدي الـ
ـوهم له غادرته مجزرا
يا ملك العصر الذي صدره
افسح من أقطارها مصدرا
وابن الذي طاول أفلاكها
فلم يجد من فوقه مظهرا
منها قب تكسر كسرى كما
تقصر عن إدراكها قيصرا

مـــا عـــام في أوصـــافهـــا شـــاعـــر
إلاّ رأى أوصـــــافهـــــا أشعـــــرا
للّـــــه أصـــــل أنـــــت فـــــرع لـــــه
مـــــا أطيـــــب المجنـــــى ومـــــا أطهـــــرا
مـــا حلـــب البيضـــاء مـــذ صنتهـــا
إلاّ حـــــــرام مثـــــــل أمّ القـــــــرى
شيـــــدت في معمـــــور أرجـــــائهـــــا
لكـــــل بـــــاغـــــى عمـــــره مشعـــــرا
فـــأصبـــح الشـــادي إذا ثـــوّب الـــ
ـــــــداعي لـــــــه هلـــــــل أو كبرا
لاعـــــدم الاســـــلام مـــــن كفـــــه
كهـــــــف لمن أرهـــــــق أو أحصرا
كـــــأنما ســـــاحتـــــه جنـــــة
أجـــــرت بهارا حتـــــه كـــــوثـــــرا
تصرّم الشهـــــر الـــــذي كنـــــت في
أوقـــاتـــه مـــن قـــدره أشهـــرا
جهـــــادليـــــل في نهار غـــــزا
إذ كنـــــت فيـــــه الأصبر الأشكـــــرا
أصـــدق مـــا يـــرشفـــه ســـامـــع
مـــا هـــز مـــن أوصـــافـــك المنبرا
أبقـــاك للـــدنيـــا وللـــديـــن مـــن
خـــــــــــــــــــلاك في ليلهما نيرا
حتـــى تـــرى عيســـى مـــن القـــدس قـــد
نجـــــــا إلى سيفـــــــك مستنصرا

قال أبـو يعلى: وفي رجب أذن لمن يتعـاطى الوعـظ بالتكلـم في الجامع المعمور بدمشق على جري العادة والرسـم، فبدأ من إختلافهم في أحوالهم وأغـراضهم والخوض في قضـايـا لا حاجـة لها مـن المذاهـب ما أوجـب

صرفهم عن هذه الحال، وإبطال الوعظ لما يتوجه معه من الفساد،وطمع سفهاء الأوغاد وذلك في آخر شعبان منها.

قال: وكثر فساد الفرنج المقيمين بصور وعكا والثغور الساحلية في الأعمال الدمشقية بعد رحيلهم عن دمشق، فأغار معين الدين على أعمالهم وخيم في ناحية من حوران بالعسكر، وكاتب العرب واستدعى جماعة وافرة من التركمان، وأطلق أيديهم في نهبهم والفتك بهم، فلم يزل على النكاية فيهم، والمضايقة لهم إلى أن ألجأهم إلى طلب المصالحة.

ودخلت سنة أربع وأربعين وخمسمائة

فجدّدت المهادنة في المحرّم مدّة سنتين، وأنفذ نور الدين إلى معين الدين يعلمه أن صاحب أنطاكية قد جمع أفرنج بلاده، وظهر يطلب بهم الإفساد في الأعمال الحلبية، وأنه قد برز في عسكره إلى ظاهر حلب للقائه والحاجة ماسة إلى معاضدته، فندب معين الدين مجاهد الدين بُزان بن مامين في فريق وافر من العسكر الدمشقي للمصير إلى جهته، وبذل المجهود في طاعته ومناصحته، وبقي معين الدين في باقي العسكر بناحية حوران.

قال: وفي صفر من السنة وردت البشائر من جهة نور الدين بما أولاه اللّه تعالى، وله الحمد على حشد الفرنج المخذول، ولم يفلت منهم إلاّ من أخبر ببوارهم، وتعجيل دمارهم، وذلك أن نور الدين اجتمع له من العساكر ستة آلاف فارس مقاتلة سوى الاتباع والسواد، فنهض بهم إلى الفرنج في الموضع المعروف بإنّب وهم في نحو أربعمائة فارس وألف راجل، فقتلوهم وغنموهم ووجد اللعين البرنس مقدّمهم صريعاً بين حماته وأبطاله، فعرف وقطع رأسه، وحمل إلى نور الدين ، وكان هذا اللعين من أبطال الفرنج المشهورين بالفروسية، وشدّة البأس وقوة الحيل، وعظم الخلقة، مع اشتهار الهيبة وكثرة السطوة والتناهي في الشر، وذلك يوم الأربعاء الحادي والعشرين من صفر.

ثم نزل نور الدين في العسكر على باب انطاكية، وقد خلت من حماتها والذابين عنها، ولم يبق فيها غير أهلها مع كثرة عددهم وحصانة بلدهم، وتردّدت المراسلات بينه وبينهم في طلب التسليم إليه وإيمانهم وصيانة أموالهم، فوقع الاحتجاج منهم بأن هذا الأمر لايمكنهم الدخول فيه إلاّ بعد انقطاع أمالهم من الناصر لهم والمعين على من يقصدهم، وحملوا ما أمكنهم من التحف والمال، ثم استمهلوا فأمهلوا، ثم رتب نور الدين

بعض العسكر للاقامة عليها، والمنع لمن يصل إليها، ونهض في بقية العسكر إلى ناحية أفامية، وقد كان رتب الأمير صلاح الدين في فريق وافر من العسكر لمنازلتها ومضايقتها، فالتمسوا الأمان فأومنوا على أنفسهم وسلموا البلد في ثامن عشر ربيع الأوّل، وانكفأ نور الدين في عسكره إلى ناحية أنطاكية وقد إنتهى الخبر بنهوض الفرنج من ناحية الساحل إلى صوب أنطاكية لإنجاد من بها ، فاقتضت الحال مهادنة من في أنطاكية وموادعتهم، وتقرير أن يكون ماقرب من الأعمال الحلبية له، وما قرب من أنطاكية لهم، ورحل عنهم إلى جهة غيرهم بحيث كان قد ملك في هذه النوبة مما حول انطاكية من الحصون والقلاع والمقالع، وغيرها من المغانم الجمة، وفصل عنه الامير مجاهد الدين بزان في العسكر الدمشقي وقد كان له في هذه الوقعة ولمن في جملته البلاء المشهور والذكر المشكور، لما هو موصوف به من الشهامة والبسالة وإصابة الرأي والمعرفة بمواقف الحروب.

وقال ابن أبي طي: حمل أسد الدين على حامل صليب الفرنج فقتله وقتل البرنس صاحب أنطاكية وجماعة من وجوه عسكره، ولم يقتل من المسلمين من يقوم به، وعاد المسلمون بالغنائم والأسارى، وكان لأسد الدين في هذه الحرب اليد البيضاء، ومدحه بها بعض الشعراء الحلبيين بقصيدة يقول فيها:

إذا كان آل فرنج أدركوا فلجا
في يوم يغراونا لوا منية الظفر
ففي الخطيم خطمت الكفر منصلتا
أبا المظفر بالصمصامة الذكر
نالوا بيغرا نهابا وانتبهت لنا
على الخطيم نفوس المعشر الأشر
واستقودوا الخيل عريا واستقدت لنا
قوام ص الكفر في ذل وفي صغر

قال: وحصل لأسد الدين من هذه الكسرة سلاح كثير، وعدّة أسارى وخيول كثيرة، فأنفذ لأخيه نجم الدين منها شيئا.

وفي هذه السنة عظم أمر أسد الدين

وقال ابن الأثير: سار نور الدين إلى حصن حارم، وهو للفرنج فحصره وخرّب ربضه ونهب سواده ثم رحل عنه إلى حصن إنب فحصره، فاجتمعت الفرنج مع البرنس صاحب أنطاكية وساروا إليه ليرحلوه عن إنب فلم يرحل بل لقيهم وتصاف الفريقان واقتتلوا وصبروا، وظهر من نور الدين من الشجاعة والصبر في الحرب على حداثة سنه ما تعجب منه الناس، وإنجلت الحرب عن هزيمة الفرنج، وقتل المسلمون منهم خلقا كثيرا، وفيمن قتل البرنس صاحب أنطاكية، وكان عاتيا من عتاة الفرنج وذوي التقدّم فيهم والملك، ولما قتل البرنس خلف ابناصغير وهو بيمند فبقي مع أمّه بأنطاكية ، فتزوجت أمه ببرنس آخر وأقام معها بأنطاكية يدبر الجيش ويقودهم ويقاتل بهم إلى أن يكبر بيمند، ثم إن نور الدين غزا بلد الفرنج غزوة أخرى وهزمهم وقتل فيهم وأسر، وكان في الأسرى البرنس الثاني زوج أمّ بيمند، فلما أسره تملك بيمند أيضا أنطاكية بلد أبيه وتمكن منه، وبقي بها إلى أن أسره نور الدين بحارم سنة تسع وخمسين وخمسمائة على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

وأكثر الشعراء مدح نور الدين وتهنئته بهذا الفتح ، وقتل البرنس، فممن قال فيه القيسراني الشاعر من قصيدة أنشده إياها بجسر الحديد الفاصل بين عمل حلب وعمل أنطاكية أوّلها:

هذي العزائم لا ما تدعي القضب
وذي المكارم لا ما قالت الكتب
وهذه الهمم اللاتي متى خطبت
تعثرت خلفها الاشعار والخطب

صافحت يابن عماد الدين ذروتها
براحة للمساعي دونها تعب
مازال جدّك يبني كل شاهقة
حتى إبتنى قبة أوتادها الشهب
للّه عزمك ما أمضى وهمك ما
أفضى اتساعا بما ضاقت به الحقب
ياساهد الطرف والأجفان هاجعة
وثابت القلب والأحشاء تضطرب
أغرت سيوفك بالافرنج راجفة
فؤاد روميّة الكبرى لها يجب
ضربت كبشهم منها بقاصمة
أودى بها الصلب وانحطت بها الصلب
قل للطغاة وإن صمت مسامعها
قولا لصمّ القنا في ذكره أرب
ما يوم إنب والأيام دائلة
من يوم يغرا بعيد لا ولا كثب
أغرّكم خدعة الآمال ظنكم
كم أسلم الجهل ظنا غرّه الكذب
غضبت للدين حتى لم يفتك رضى
وكان دين الهدى مرضاته الغضب
طهرت أرض الأعادي من دمائهم
طهارة كل سيف عندها جنب
حتى استطار شرار الزند قادحة
فالحرب تضرم والآجال تحتطب
والخيل من تحت قتلاها تفر لها
قوائم خانهنّ الركض والخبب
والنقع فوق صقال البيض منعقد
كما استقل دخان تحته لهب

السيف هام على هام بمعركة
لا البيض ذو ذمّة فيها ولا اليلب
والنبل كالوبل هطال وليس له
سوى القسي وأيد فوقها سحب
وللظبى ظفر حلو مذاقته
كأنما الضرب فيما بينهم ضرب
ولللأسنة عما في صدورهم
مصادر أقلوب تلك أم قلب
خانوا فخانت رماح الطعن أيديهم
فاستسلموا وهي لا تنبع ولا غرب
كذاك من لم يوق اللّه مهجته
لاقى العدى والقنا في كفه قصب
كانت سيوفهم أوحى حتوفهم
يارب حائنه منجاتها العطب
حتى الطوارق كانت من طوارقهم
ثارت عليهم بها من تحتها النوب
أجسادهم في ثياب من دمائهم
مسلوبة وكأنّ القوم ما سلبوا
أبناء ملحمة لو أنها ذكرت
فيما مضى نسيت أيامها العرب
من كان يغزو بلاد الشرك مكتسبا
من الملوك فنور الدين محتسب
ذو غرّة ما سمت والليل معتكر
الا تمزق عن شمس الضحى الحجب
أفعاله كاسمه في كل حادثة
ووجهه نائب عن وصفه اللقب
في كل يوم لفكري من وقائعه
شغل فكل مديحي فيه مقتضب

مـــن بـــاتـــت الاســـد أسرى في ســـلاسلـــه
هـــل يـــأسر الغلـــب إلاّ مـــن لـــه الغلـــب
فملكـــوا سلـــب الابـــرنـــس قـــاتلـــه
وهـــل لـــه غير أنطـــاكيـــة سلـــب
مـــن للشقـــي بما لاقـــت فـــوارســـه
و إن يســـائرهـــا مـــن تحتـــه قتـــب
عجبـــت للصعـــدة السمـــراء مثمـــرة
بـــرأســـه إن أثمار القنـــا عجـــب
سما عليهـــا اســـمـــوّ الماء أرهقـــه
أنبـــوبـــة في صعـــود أصلهـــا صبـــب
مـــا فـــارقـــت عـــذبـــات التـــاج مفـــرقـــه
إلاّ وهـــي منـــه لا تـــاج ولا عـــذب
إذا القنـــاة ابتغـــت في رأســـه نفقـــا
بـــد الثعلبهـــا مـــن نحـــره سرب
كنـــا نعـــدّ حمى أطـــرافنـــا ظفـــرا
فملكتـــك الظبـــى مـــا ليـــس نحتســـب
عمـــت فتـــوحـــك بـــالعـــدوى معـــاقلهـــا
كـــان تسليـــم هـــذا عنـــد ذا جـــرب
لم يبـــق منهـــم ســـوى بيـــض بـــلا رمـــق
كما التـــوى بعـــد رأس الحيـــة الـــذنـــب
فـــانهض إلى المسجـــد الأقصـــى بـــذي لجب
يـــوليـــك أقصـــى المنى فـــالقـــدس مـــرتقـــب
وائذن لموجـــك في تطهير ســـاحلـــه
فـــانما أنـــت بحـــر لجه لجب
يـــامـــن أعـــاد ثغـــور الشـــام ضـــاحكـــة
مـــن الظبـــى عـــن ثغـــور زانها الشنـــب
مـــازلـــت تلحـــق عـــاصيهـــا بطـــائعهـــا
حتـــى أقمـــت وأنطـــاكيـــة حلـــب

حللت من عقلها أيدى معاقلها
فاستجفلت وإلى مشاقك الهرب
وأيقنت أنها تتلو مراكزها
وكيف يثبت بيت ماله طنب
أجريت من ثغر الاعناق أنفسها
جري الجفون امتراها بارح حصب
وما ركزت القنا إلاّ ومنك على
جسر الحديد هز برغيله اشب
فاسعد بما نلته من كل صالحة
يأوي إلى جنة المأوى لها حسب
إن لا تكن أحد الابدال في فلك الـ
ـتقوى فلا نتمارى أنك القطب
فلو تناسب أملاك السماء بها
لكان بينكما من عفة نسب
هذا وهل كان في الاسلام مكرمة
إلا شهدت وعباد الهوى غيب

وله فيه من قصيدة أخرى:

ألا للّه درّك أي درّ
صريح جاء بالكرم الصريح
وعسكرك الذي استولى مشيحا
على ما بين فاميه وشيح
ووقعتك التي بنت العوالي
صوادر عن قتيل أو جريح
بإنب يوم أبرزت المذاكي
من النقع الغزالة في مسوح
غداة كأنما العاصي احمرارا
من الدم عبرة الجفن القريح

وقـــدوافـــاك بـــالابـــرنـــس حتـــف
أتيـــح لـــه مـــن القـــدر المتيـــح
قتلـــت أشحهـــم بـــالنفـــس إذلا
يجود بنفســـــــه غير الشحيـــــح
مـــلأت بهم ضرائحهـــم فـــأمســـوا
وليـــس ســـوى القشـــاعـــم مـــن ضريـــح
وعـــــدت إلى ذرا حلـــــب حميـــــدا
سمـــوا البـــدر مـــن بعـــد الجنـــوح
فـــإن جليـــت بغـــرتـــك الليـــالي
فكـــم لسنـــاك مـــن زمـــن مليـــح
رويـــدك تسكـــن الهيجـــا فـــواقـــا
بحيـــث تـــريـــح مـــن تعـــب المريـــح
فـــأنـــت وإن أرحـــت الخيـــل وقتـــا
فهمـــــك غيرهـــــم المستريـــــح

قال أحمد بن منير يمدحه ،ويذكر ظفره بالبرنس وأصحابه ، وحمل رأسه إلى حلب ، وأنشده أيضا إياها بجسر الحديد:

أقـــوى الضـــلال وأقفـــرت عـــرصـــاتـــه
وعـــــلا الهدى وتبلجـــــت قسماتـــــه
وانتـــــاش ديـــــن محمـــــد محمـــــوده
مـــن بعـــد مـــا عُلّـــت دمـــاعبراتـــه
ردّت على الاســـــلام عصر شبـــابـــه
وثبـــاتـــه مـــن دونـــه وثبـــاتـــه
أرســـى قـــواعـــده ومـــدّ عماده
صعـــدا وشيـــد ســـوره ســـوراتـــه
وأعـــاد وجـــه الحق أبيـــض نـــاصعـــا
اصـــلاتـــه وصـــلاتـــه وصـــلاتـــه
لما تـــواكـــل خـــربـــه وتخاذلـــت
أنصـــاره وتقـــاصرت خطـــواتـــه

رفعت لنور الدين نار عزيمة
رجعت لها عن طبعها اظلماته
ملك مجالس لهوه شداته
ومشوقه بين الصفوف شذاته
تغري بحثحثة اليراع بنانه
إن لذ حثحثة الكؤوس لداته
ويروقه ثغر العدى قان دما
لا الثغر يعبق في لماه لثاته
فصبوحه خمر الطلى وغبوقه
نطف النفوس تدرها انشواته
فتح تعممت السماء بفخره
وهفت على أغصانها عذباته
سبغت على الاسلام بيض حجوله
واختال في أوضاحها جبهاته
وانهل فوق الابطحين غمامه
وسرت إلى سكينها نفحاته
لله بلجة ليلة محصت به
واليوم ذبح وشيه ساعاته
حط القوامص فيه بعد قماصها
ضرب يصلصل في الطلى صعقاته
نبذوا السلاح لضيغم عاداته
فرس الفوارس والقنا غاياته
لمجرب عمريه غضباته
لله معتصمية غزواته
تحيا الضيق صفاده اسراؤه
وتفيض ماء شؤونها نغماته
بين الجبال خواضع أعناقها
كالذود نابت عن براه حداته

نشرت على حلب عقود بنودهم
حلل الربيع تناسقت زهراته
روض جناه لها مكرر جياده
واستوأرت حمالة حملاته
متساندين على الرحال كما انثنى
شرب أمالت هامه قهواته
لم تنبت الأجرام قبل رماحه
شجراً فروع أصوله ثمراته
فليحمد الاسلام ما جدحت له
شربات غرس هذه مخباته
وسقى صداك الحيا صوب الحيا
خير الثرى ما كنت أنت نباته
نصب السرير ومال عنه ومهدت
لمقر منصبك السرى سراته
ما ضرّ هذا البدر وهو محلق
إن الكواكب في الذرى ضراته
في كل يوم تستطيل قناته
فوق السماء وتعتلي درجاته
وترى كشمس في الضحى آثاره
مجداً وألسنة الزمان رواته
أين الأولى ملأوا الطروس زخارفا
عن نزف بحر هذه قطراته
عذقوا بأعناق العواطل ماله
من جوهر فأتتهم فذاته
لو فصلوا سمطا ببعض فتوحه
سخرت بما افتعلوا لهم فعلاته
تمسي قنانيه بنات قيونه
فوق القوانس والقنا قيناته

صلتبان من دون الملوك تغرها
حركاته وتنيمها يقظاته
فغدت بهم عن خطوه هماتهم
وسمت به عن قطوهم هماته
سكنوا مسجفة الحجال وأسكنت
زحل الرجال مع السها عزماته
لو لاح للطائي غرة فتحه
باءت بحمل تأوه بآته
أوهب للطبري طيب نسيمه
لاحتش من تاريخه حشواته
صدم الصليب على صلابة عوده
فتفرقت أيدى سبأ خشباته
وسقى البرنس وقد تبرنس ذلة
بالروح مقر ما خبت عذراته
فانقاد في خطم المنية أنفه
يوم الخطيم واقصرت نزواته
ومضى يؤنب تحت إنب همة
أمست زوافر غيها زفراته
أسد تبوأ كالغرنف فجأته
فتبوأت طرف السنان شواته
دون النجوم مغمضا ولطالما
اغضت وقد كرت لها لحظاته
فجلوته تبكي الاصادق تحته
بدم إذا ضحكت له شماته
تمشي القناة برأسه وهو الذي
نظمت مدار النيرين قناته
لو عانق العيوق يوم رفعته
لاراك شاهد خفضه اخباته

مـــا انقـــاد قبلـــك أنفـــه لخزامـــه
كـــلا ولا همســـت لها هـــدراتـــه
طيـــان خلـــف السرح طـــال زئيره
نطقـــت سطـــاك لـــه فطـــال صماتـــه
لما بـــدا مســـود رأيـــك فـــوقـــه
مبيـــض نصرك نكســـت رايـــاتـــه
ورأى سيـــوفـــك كـــالصـــوالـــج طـــاوحـــت
مثـــل الكـــريـــن فقلصـــت كـــراتـــه
ولى وقـــد شربـــت ظبـــاك كماتـــه
تحت العجـــاج وأسلمتـــه حماتـــه
تـــرك الكنـــائس والكنـــاس لنـــاهـــب
بـــالبيـــض نهب مـــا حـــواه عفـــاتـــه
لغـــلاب أروع لا يميـــت عـــداتـــه
داء المطـــال ولا تعيـــش عـــداتـــه
للـــوحـــش ملقـــى بـــالعـــرا يقتـــاتـــه
مـــا كـــان قبـــل بصيـــده يقتـــاتـــه
اليـــوم ملكـــك القـــراع قـــلاعـــه
متسنما مـــا استشرفـــت شرفـــاتـــه
وغـــدا تحل لـــك الحلائل اسهـــم
متـــوزعـــات بينهـــن بنـــاتـــه
اوطـــأت أطـــراف السنـــابـــك هـــامـــه
فتقـــاذفـــت بعنيفهـــا قـــذفـــاتـــه
لازال هـــذا الملـــك يشمـــخ شـــأنـــه
أبـــدا ويلفـــت في الحضيـــض وشـــاتـــه
مـــا أخطـــأتـــك يـــد الـــزمـــان فـــدونـــه
مـــن شـــاء فلتسرع إليـــه هنـــاتـــه
أنـــت الـــذي تحلى الحيـــاة حيـــاتـــه
وتهب أرواح القصيـــدهبـــاتـــه

فصل

قال ابن الاثير: وفيها سار نور الدين إلى حصن فامية، وهو للفرنج أيضا، وبينه وبين مدينة حماه مائة مرحلة، وهو حصن منيع على تل مرتفع عال من أحصن القلاع وأمنعها، وكان من به من الفرنج يغيرون على أعمال حماه وشيزر وينهبوها، فأهل تلك الاعمال معهم تحت الذل والصغار، فسار نو الدين إليه وحصره وضيق عليه ومنع من به القرار ليلاً ونهاراً، وتابع عليهم القتال ومنعهم الاستراحة، فاجتمعت الفرنج من سائر بلادهم وساروا نحو ه ليزحزحوه عنها فلم يصلوا إليه إلا وقد ملك الحصن وملأه ذخائر من طعام ومال وسلاح ورجال، وجميع ما يحتاج إليه، فلما بلغه قرب الفرنج سار نحوهم فحين رأوا جدّه في لقائهم رجعوا واجتمعوا ببلادهم، وكان قصاراهم أن صالحوه على ما أخذه ومدحه الشعراء وأكثر وا.منهم أبو الحسن أحمد بن منير حيث قال:

اسنى الممالك ما اطلت منارها
وجعلت مرهفة الشفار ثارها
وأحق من ملك البلاد وأهلها
رؤوف تكنفه عدله أقطارها
من عام سام الخافقين وحامها
مننا وزاده وى فخص نزارها
مضرية طبعت مضاربه وإن
عدّته ذروة فارس اسوارها
آل الرعية وهي تجهل آلها
وتعاف نطفتها وتكره دارها
فأقرّ ضجعتها وأنبت نيها
وأساغ جرعتها واثبت زارها
ملك أبوه سماها فسما بها
وأجارها فعلت سهيلا جارها

نهج السبيـــل لـــه فـــأوضـــع خلفـــه
وشـــد الـــه يمـــن العلى فـــانـــارهـــا

أنشرت يـــا محمـــود ملـــة أحمد
مـــن بعـــد مـــا شمـــل البلى اصحـــارهـــا

إن جـــانـــأت عـــدل السنـــان قـــوامهـــا
أو نـــانـــأت كـــان الحسـام جبـــارهـــا

عقلـت مـع العصـم العـواصـم مذغـدت
هـــذي العـــزائم أسرهـــا وإســـارهـــا

وتكلفـــت لـــك ضمـــر انضيتهـــا
في صـــونها أن تستردّ ضمارهـــا

كـــلأت هـــواملهـــا وردّ مطـــارهـــا
مـــا أريشتـــه وثقفـــت آطـــارهـــا

كـــم حـــاولـــت مـــن كفتيهـــا غـــرّة
غلـب الأســود فقلمـت أظفـــارهـــا

أنـــى وحـــامـــي سرحهـــا مـــن لـــو سمـت
للفلـــك بسطتـــه أحـــال مـــدارهـــا

في كـــل يـــوم مـــن فتـــوحـــك ســـورة
للـــديـــن يحمـــل سفـــره أسفـــارهـــا

ومطيلـــة قصر المنـــابـــر إن غـــدا الـــ
ـــخطباء تنثـــر فـــوقهـــا تقصـــارهـــا

همم تحجلـــت الملـــوك وراءهـــا
بـــدم العثـــار ومـــا اقتفـــت آثـــارهـــا

وعـــزائم تستـــوئر الآســـاد عـــن
نهش الفـــرائس إن أحـــس أوارهـــا

أبـــدا تقصر طـــول مشرفـــة الـــذرى
بـــالمشرفيـــة أو تطيـــل قصـــارهـــا

فغـــزت أفـــاميـــة فمافهمتـــه
كـــوبـــارأ جنـــاهـــا الاران بـــوارهـــا

أرهفـــت رائك فـــوق رائك تحتهـــا
فحططـــت مـــن شغفـــاتها أعفـــارهـــا

أدركـــت ثـــارك في البغـــاة وكنـــت يـــا
مختـــار أمّـــة أحمد مختـــارهـــا

عـــاريـــة الـــزمـــن المغير سمالها
منـــك المغيرة فـــاستردّ معـــارهـــا

زأر الهزبـــر فقيـــدت عـــانـــاتها
عصر الضـــلال وأسلمـــت أعيـــارهـــا

ضـــاءت نجـــومـــك فـــوقهـــا ولـــربما
بـــاتـــت تنـــافثهـــا النجـــوم سرارهـــا

أمســـت مـــع الشعـــرى العبـــور وأصبحـــت
شعـــراء تستقلي الفحـــول شـــوارهـــا

ولكـــم فـــرعـــت بمقـــربـــاتـــك مثلهـــا
تلعـــا وقلـــدت الكماة عـــذارهـــا

حتـــى إذا اشتملتـــك أشرق ســـورهـــا
عـــزا وحـــلاهـــا سنـــاك ســـوارهـــا

خـــرّ الصليـــب وقـــد علـــت نغماتها
واستـــوبلـــت صلـــواتـــه تكـــرارهـــا

لما وعـــاهـــا ســـمـــع انطـــاكيـــة
سرت الـــوقـــار وكشفـــت أستـــارهـــا

فـــاليـــوم أضحـــت تستـــذمّ مجيرهـــا
مـــن جـــوره وغـــدت تـــذمّ جـــوارهـــا

علمـــت بـــأن ستـــذوق جـــرعـــة أختهـــا
إن زرّ أطـــواق القبـــاء وزارهـــا

مـــاض إذا قـــرع الـــركـــاب لبلـــدة
ألقـــت لـــه قبـــل القـــراع ازارهـــا

و إذا مجانقـــه ركعـــن لصعبـــة الـــ
ـــملقاة أسجـــد كـــالجديـــر جـــدارهـــا

ملأ البلاد مواهبا ومهابة
حتى استرقت آية أحرارها

يذكي العيون إذا أقام لعينها
أبدا ويفضي بالظبى أبكارها

أو ما إلى رمم الندى فأعاشها
وهما السابقة المنى فازارها

نبويّ تشبيه الفتوح كأنما
أنصاره رجعت له أنصارها

أحيا الصرح سلامها سلما نها
وأمات تحت عمارها اعمارها

إن سار سار وقد تقدّم جيشه
رجف يقصع في اللهي ذعارها

أو حلّ حلّ حبا القروم بهيبة
سلب البدور وبدارها أبدارها

وإذا الملوك تنافسوا درج العلى
أربى بنفس أفرعته خيارها

ونهى إذا هيضت تدلّ لجبرها
وسطى تذل إذا عنت جبارها

تهدى لمحمود السجايا كاسمه
لو لز فاعلة بها لأبارها

الفاعل الفعلات ينظم في الدجى
بين النجوم حسودها اسمارها

ساع سعى والسابقات وراءه
عنقا فعصفر منتهاه عثارها

كالمضرجي إذا يصرصر رائبا
خرس البغاث وهاجرت أوكارها

عرفت لنور الدين نور وقائع
يغشى إذا اكتحلت به أبصارها

مشهورة سطعت وقد حاولتها الـ
ـأقدار عجزا أن تشق غبارها
للّه وجهك والوجوه كأنما
حطت بها أوقار هبت قارها
والبيض تخنس في الصدور صدورها
هبرا وتكتحل الشفور شفارها
والخيل تدلج تحت أرشية القنا
جذب المواتح غاورت أبارها
فبقيت تستجلي الفتوح عرائسا
متمليا صدر العلى وصدارها
في دولة للنصر فوق لوائها
زبر تنمق في الطلى أسطارها
فالدين مرماة رفعت بها الصوى
وحديقة ضمنت يداك ابارها

وله فيه من قصيدة أخرى:

خنس الثعالب حين زجر مصحر
ملأ البلاد هماهما وزئيرا
تركوا مشاجرة الرماح لحاذق
جعلت مخافته القصور قبورا
لربيب حرب لم تزل فعلاته
كالراء يلزم لفظها التكريرا
أسد إذا ما عاد من ظفر بمف
ـترس أحدّ لمثله اظفورا
يتناذر الاعداء منه سطوة
ملأ الزمان تغيظا وزفيرا
عرفوا النور الدين وقع وقائع
وفى بها الاسلام أمس نذورا

أبـــدا يظـــافـــرك القضـــاء على الـــذي
تبغـــي فترجـــع ظـــافـــرا منصـــورا
قـــوّضـــت فـــانتقـــع الظهـــائر ظلمـــة
وقفلـــت فـــاشتعـــل الـــديـــاجـــر نـــورا
وعلى العـــواصـــم مـــن دفـــاعـــك عـــاصـــم
ينشـــي الـــرشيـــد وينشر المنصـــورا

فصل

في وفاة معين الدين أنر بدمشق وما كان من الرئيس ابن الصوفي في هذه السنة

قال أبو يعلى التميمي: فصل معين الدين من عسكره بحوران ووصل إلى دمشق في أواخر ربيع الآخر لأمر أوجب ذلك ودعا إليه وأمعن في الأكل ، فلحقه عقيب ذلك انطلاق تمادى به، وحمله اجتهاده فيما يدبره على العود إلى عسكره بناحية حوران وهو على هذه الصفة من الانطلاق، وقد زاد به وضعفت قوته وتولد معه مرض في الكبد، فأوجب الحال عوده إلى دمشق، في محفة لمداواته فوصل، وقضى نحبه في ليلة الثالث والعشرين من ربيع الآخر، ودفن في إيوان الدار الأتابكية التي كان يسكنها، ثم نقل بعد ذلك إلى المدرسة التي عمرها.

قلت: قبره في قبة بمقابر العوينة شمالي دار البطيخ الآن واسمه مكتوب على بابها فلعله نقل من ثم إليها، وفيه يقول الأمير مؤيد الدولة أسامة بن منقذ وكتب بها إليه من مصر لما لقي الفرنج في أرض بصرى وصرخد مع نور الدين، وقد تقدم ذلك كتب إليه قصيدة يقول فيها:

كـــل يـــوم فتـــح مبين ونصر
واعتـــلاء على الاعـــادي وقهـــر

صـــدق النعـــت فيـــك أنـــت معين الـــ
ـــــدين إن النعـــــوت فـــال وزجـــر
أنـــت سيـــف الاســـلام حقـــا فـــلا كـــل
غـــرار يـــك أيها السيـــف دهـــر
لم تـــزل تضمـــر الجهـــاد مسرا
ثـــم أعلنـــت حين أمكـــن جهـــر
كـــل ذخـــر الملـــوك يفنـــى وذخـــرا
ك هما البـــاقيـــان أجـــر وشكـــر (٥٧)

قال: وفي يوم الجمعة تاسع رجب قرىء المنشور المنشأ عن مجير الدين بعد الصلاة على المنبر بابطال الفيئة المستخرجة من الرعية وإزالة حكمها وتعفية رسمها وإبطال دار الضرب، فكثر دعاء الناس له وشكرهم، قال: واستوحش الرئيس مؤيد الدولة من مجير الدين استيحاشا أوجب جمع من أمكنه من سفهاء الأحداث والغوغاء وحملة السلاح من الجهلة العوام وترتيبهم حول داره ودار أخيه زين الدولة حيدرة للاحتماء بهم من مكروه يتم عليهما، وذلك في ثالث عشر رجب، ووقعت المراسلات من مجير الدين بما يسكنهما ويطيب أنفسهما، فما وثقا بذلك وجدا في الجمع والاحتشاد من العوام وبعض الاجناد ، وأثارا الفتنة فقصدوا باب السجن وكسروا غلاقه واطلقوا من فيه، واستنفروا جماعة من أهل الشاغور وغيرهم وقصدوا الباب الشرقي وفعلوا مثل ذلك، وحصلوا في جمع كثير، وامتلأت بهم الأزقة والدروب، فحين عرف مجير الدين وأصحابه هذه الصورة اجتمعوا في القلعة بالسلاح الشاكي، وأخرج ما في خزانته من السلاح والعدد وفرقت على العسكر، وعزموا على الزحف على جميع الأوباش والايقاع بهم والنكاية فيهم، فسأل جماعة من المقدمين التمهل في هذا الأمر وترك العجلة بحيث تحقن الدماء ويسلم البلد من النهب والحريق، وألحوا عليه إلى أن أجاب سؤالهم، ووقعت المراسلة والتلطف في إصلاح ذات البين، فاشترط الرئيس وأخوه شروطا أجيبا إلى بعضها،

وأعرض عن بعض بحيث يكون ملازما لداره، ويكون ولده وولد أخيه في الخدمة في الديوان، ولايركب إلى القلعة إلا مستدعى إليها، وتقررت الحال على ذلك وسكنت الدهماء، ثم حدث بعد هذا التغيير عود الحال إلى ما كانت عليه من العناد وإثارة الفساد وجمع الجمع الكثير من الاجناد والمقدّمين والرعاع والفلاحين، واتفقوا على الزحف إلى القلعة، وحصر من بها وطلب من عين عليه من الأعداء الأعيان في أواخر رجب، ونشبت الحرب بين الفريقين وجرح وقتل بينهم نفر يسير، وعاد كل فريق منهم إلى مكانه ووافق ذلك هروب السلار زين الدين اسماعيل الشحنة وأخيه إلى ناحية بعلبك، ولم تزل الفتنة ثائرةوالمحاربة متصلة إلى أن اقتضت الصورة إبعاد من التمس ابعاده من خواص مجير الدين، وسكنت الفتنة وأطلقت أيدى النهابة في دار السلار زين الدين وأخيه وأصحابهما ،وعمها النهب والاخراب، ودعت الضرورة إلى تطييب نفس الرئيس وأخيه والخلع عليهما وإعادة الرئيس إلى الوزارة والرياسة بحيث لايكون له في ذلك معترض ولا مشارك.

قلت: وفي هذه الفتنة يقول العرقله.

ذر الاتراك والعربا
وكن في حزب من غلبا
بجلق أصبحت فتن
تجر الويل والحربا
لئن تمت فوا أسفا
ولم تحزن فوا عجبا

وقال في الرئيس لما زحف إلى القلعة:

زد علوا في المجد يابن علي
هكذا من أراد أن يتعالى
وغدت جلق تناديك عجبا
هكذا هكذا والا فلا لا

لـــن تبـــالي مـــن بعـــدهـــا بعـــدو
إنما ذاك كـــــان قطعـــــا فـــــزالا
قـــد حـــوى الـــديـــن يـــامـــؤيـــده منـــ
ـــــك هـــــزبـــــراً وديمـــــة وهـــــلالا
جئتهـــــا في الظـــــلام خيـــــلا ورجـــــلا
وحميـــــت النفـــــوس والامـــــوالا
قـــد بلغـــت المراد مـــن كـــل ضـــد
وكفـــــى اللّـــــه المؤمنين القتـــــالا

قال أبو يعلى التميمي: وفيها ورد الخبر من ناحية مصر بوفاة المستخلف بها الملقب بالحافظ واسمه عبد المجيد بن الآمر بن المستنصر في خامس جمادى الآخرة ، وولي الأمر بعد ولده الأصغر أبو منصور اسماعيل ، ولقب بالظافر، وولى الوزارة أمير الجيوش أبو الفتح بن مصال المغربي.

فصل

في وفاة سيف الدين غازي بن زنكي صاحب الموصل

وهو أخو نور الدين الأكبر.

قال ابن الاثير:كان أتابك الشهيد، يعني زنكي، ملك دارا وبقيت بيده إلى أن قتل، فأخذها صاحب ماردين، ثم سار إليها سيف الدين بن الشهيد في سنة أربع وأربعين فحاصرها وملكها واستولى على كثير من بلد ماردين بسببها، ثم حصر ماردين عازما على أن يدخل ديار بكر، ويستعيد ما أخذ من البلاد بعد قتل والده، فتفرق العسكر في بلدها ينهبون ويخربون، فقال صاحب ماردين: كنا نشكو من أتابك وأين أيامه فلقد كانت أعياداً قد حصرنا غير مرة فلم يتعدّ هو وعسكره حاصل

السلطان، ولا أخذوا كفا من التبن بغير ثمن:

رب دهـــــر بكيـــــت منـــــه فلما
صرت في غيره بكيـــــــت عليـــــه

ثم إنـه راسل سيف الديـن وصالحه على ما أراد وزوجه ابنتـه الخاتون، ورحـل سيف الـدين عـن ماردين وعاد إلى الموصـل، وجهزت الخاتـون وسيرت إليه فوصلت إلى الموصل وهو مـريض فتوفي ولم يدخل بها، وذلك في أواخر جمادى الآخرة، وكـان عمره نحو أربعين سنة، وكـان من أحسن الناس صورة، ودفـن بالمدرسة التي أنشـأها بباطن الموصـل، وخلف ولدا ذكر أخذه نـور الدين محمود عمـه فرباه فأحسـن تربيته وزوّجه ابنـة عمه قطب الدين مـودود، فلم تطل أيامه وأدركه أجله في عنفـوان شبابه فتوفي وانقرض عقـب سيف الـدين، وكـان كريما شجـاعاً ذا عـزم وحزم، وهـو أوّل من حمل على رأسه سنجـق من أصحاب الأطراف فإنـه لم يكن فيهم مـن يفعله لأجـل السلاطين السلجـوقيـة، وهو أوّل مـن أمر عسكـره أن لايركـب أحدهـم إلا والسيف في وسطه، فلما أمـر هو بـذلك إقتـدى به غيره من أصحـاب الأطراف، وبنـى بالموصـل المدرسة الأتـابكية العتيقـة وهي مـن أحسن المدارس وأوسعها، وجعلهـا وقفا على الفقهاء الشـافعية والحنفيـة نصفين، وبنى ربـاط الصـوفيـة بالموصـل أيضـا، وهـو الربـاط المجاور لبـاب المشرعة ووقف عليهما الـوقوف الكثيرة، وكان كـريما قصده شهاب الـدين حيص بيـص وامتدحه بقصيدتـه المشهورة وهي مـن جيد شعره فـأجازه عنها ألـف دينار أميري سوى الاقامـة والتعهد مدّة مقـامه وسوى الخلع والثياب.

قلت أوّل تلك القصيدة:

إلى م يـــراك المجـــد في زي شـــاعـــر

يقول في آخرها:

أتـــابـــك إن سميـــت في المهـــد غـــازيـــا
فســـــابقـــــة معـــــدودة في البشـــــائر
وفيـــت بها والـــديـن قـــد مـــال روقـــه
وصـــدّقتهـــا والكفـــر بـــادي الشعـــائر

وعـزى أبو الحسين أحمد بـن منير نـور الديـن بـأخيـه بقصيدة تقـدّم بعضها أوّلها:

هـــــو الجدّ بـــــز التمام البـــــدورا

يقول فيها:

ســـوى كـــل مـــا جنـــت الحادثـــا
ت مـــا كنـــت ظـــلا علينـــا قـــريـــرا
أســـــأ ن وأحســـــن كـــــنّ الهلال
ومـــلأننـــا منـــك بـــدرا منيرا
إذا ثبـــــج البحـــــر أخطـــــأته
فـــلا غـــر وأن ينتشفـــن الغـــديـــرا
وأصغـــر بفقـــداننـــا الـــذاهبـــ
ـــين مـــا عشـــت نـــاتيـــك ملكـــا كبيرا
ومـــا أغمـــد الـــدهـــر ذاك الحســـا
م مـــا ســـلّ حـــداك عضبـــا بتـــورا
قسيـــم عـــلاك ونعـــم القســـ
ـــيم أخ شـــاف نـــزرا وأعطـــى كثيرا
وكـــان نظيرك غـــار الـــزمـــا
ن مـــن أن يـــرى لـــك فيـــه نظيرا
فـــدتـــك نفـــوس بـــك استـــوطنـــت
مـــن الأمـــن نـــورا وقـــد كـــنّ بـــورا
وغيرك يمهـــد بســـط العـــزا
ء ويـــولي المسلمين سمعـــا وقـــورا

ومـــا نقـــص الـــدهـــر اعـــدادكـــم
إذا شـــف قطـــرا وأبقـــى بحـــورا

ولـــو أنصـــف المجـــد مـــوتـــاكـــم
لخط لهم في السماء القـــــــــــورا

حيـــاتـــك أحيـــت رميـــم الـــرجـــا
وأمطـــت مـــن الجود ظهـــرا ظهيرا

بقيـــت معـــزا مـــن الهالكـــ
ـــين تـــوقـــى الـــردى تـــوفي الاجـــورا

وللقيسراني قصيدة منها

مـــا أطـــرق الجوّ حتـــى أشرق الافـــق
إن أغمـد السيـف فـالصمصـام يـأتلـق

دون الاسـى منـك نـور الـديـن في حلـب
مملـــك ينجلي عـــن وجهـــه الغســـق

هـــو الشقيـق الشفيـق الغيـب حين ثـوى
أراق مـــاء الكـــرى مـــن جفنـــك الارق

تلقـــى الاسـى مـــن لبـاس الصبر في جنـــن
حصينـــة تحتهـــا الاحشـــاء تحترق

ومـــدّة الاجـــل المحتـــوم إن خفيـــت
فـــإن أيـــامنـــا مـــن دونها طـــرق

وإنما نحـــــن في مضمار حلبتهـــــا
خيـــل إلى غـــايـــة الاعمار تستبـــق

شـــأو إذا ابتـــدر الاقـــوام غـــايتـــه
كـــان المؤخـــر فيهـــا مـــن لـــه السبـــق

إن كـــان صنـــوك هـــذا قـــد ثـــوى وذوى
ففـــي مغـــارســـك الاثمار والـــورق

أو أصبحـــت بعـــده الاهـــواء نـــافـــرة
أيـــدي سبـــا فعلى عليـــاك نتفـــق

مـاغـــاب مـــن غـــاب عـــن آفـــاق مطلعـــه
الا ليفترّ عـــــــن أنـــــــوارك الافـــــــق
مـــــادام شمســـــك فينـــــا غير آفلـــــة
فـــالـــديـــن منتظـــم والملـــك متســـق

فصل

قال ابـن الاثير: لما توفي سيـف الدين غـازي كان أخـوه قطب الـدين مـودود بالموصـل، فاتفقـت كلمة جمال الـدين وزيـن الديـن على توليتـه وتمليكه طلبـا للسلامـة منه، فـإنه كـان لين الجانب حسـن الأخلاق كثير الحلم كريـم الطباع، فأحضروه من داره وحلفوه لهم وحلفوا لـه ونزل بدار المملكة،وحلـف له الأمـراء والأجناد واستقـر في الملك، وأطـاعه جميـع ما كـان لأخيه سيـف الـدين ، لأن المرجـع كـان في جميع المملكـة إلى جمال الديـن وزين الديـن، ولما ملك واستقرّ في الملـك تزوّج امرأة أخيـه الذي مات ولم يدخل بها، الخاتون ابنة حسام الـدين تمرتاش صاحب ماردين، فولدت لقطب الـدين أولاده الذين ملكوا الموصل بعـده على ما سنذكره، ولم يملكها من أولاد قطب الدين أحد غير أولادها.

قال: وكـانت هـذه الخاتون يحل لها ان تضـع خمارها عنـد خمسة عشر ملكا من آبائها وأجدادهـا وأخوتها، وبني أخوتها وأزواجها وأولادها وأولاد أولادها، ثـم ذكرهـم ابن الاثير في كتـابه وسماهـم، وذكر أنها أشبهـت في ذلك فـاطمة بنت عبـد الملك بن مروان زوج عمـر بن عبد العـزيز رضي اللّـه عنه، وكـان لها أن تضـع خمارها عنـد ثلاثـة عشر خليفـة وهم مـن معاوية إلى آخـر خلفاء بني أمية سوى آخـرهم وهو مروان بن محمـد فإنه ابن عم لها ليس بمحـرم والباقون محارم لها، وما تم له ذلـك إلاّ بعد ذكره أن أمها عاتكـة بنت يزيد بن معاويـة، فمعاوية جدّ أمها، ويزيـد جدّها لأمها، ومعاوية ابن يزيد خالها، ومـروان جدّها لأبيها، وعبد الملك أبوها، والوليـد وسليمان وهشام ويـزيد أخـوتها، وعمر بـن عبد العـزيز زوجهـا،

والوليد بن يزيد ويزيد بن الوليد، أولاد أخوتها، وهؤلاء كلهم خلفاء، وعدتهم ثلاثة عشر.

قلت: وهذا كله مبني على أصل فيه خلل، وهو أن فاطمة بنت عبد الملك ليست أمها عاتكة بنت يزيد بن معاوية، بل أمها امرأة مخزومية، على ما بيناه في ترجمتها في تاريخ دمشق، ولكن الصواب في ذلك أن يقال كان لفاطمة أن تضع خمارها عند عشرة من الخلفاء، وهم: مروان ابن الحكم ونسله سوى، مروان بن محمد، وأما عاتكة فالجميع محرم لها سوى عمر بن العزيز ومروان بن محمد،بقي اثنا عشر خليفة كلهم محارم لها : معاوية جدّها، ويزيد أبوها، ومعاوية بن يزيد أخوها، ومروان حموها، وعبد الملك زوجها، والوليد وسليمان وهشام أولاد زوجها، ويزيد ابن عبد الملك ابنها، والوليد بن يزيد ابن ابنها، ويزيد بن الوليد وابراهيم بن الوليد ابنا ابن زوجها، ولو أضيف إلى ذلك الملوك من محارم عاتكة أو فاطمة كالأخوة والأعمام والأخوال وبني الاخوة لتضاعف العدد، كخالد بن يزيد بن معاوية أخي عاتكة، وعبد العزيز بن مروان عم فاطمة، ومسلمة وعبد الله ابني عبد الملك، وغيرهم، وذلك ظاهر لمن عرف أنساب بني أمية، وماذكر ابن الاثير من أمر حسام الدين، فست الشام بنت أيوب أكثر منها محارم من الملوك يجتمع لها من ذلك أكثر من ثلاثين ملكا من أخوتها الأربعة : المعظم، وصلاح الدين، والعادل،وسيف الاسلام، ومن أولادهم وأولاد أولادهم وأولاد أخيها الأكبر شاهنشاه بن أيوب تقي الدين وذرّيته أصحاب حماه، وفرخشاه وابنه الأمجد صاحب بعلبك.

فصل

قال ابن الاثير: ولما ملك قطب الدين الموصل والبلاد الجزرية، كان

أخوه نور الدين بحلب، وهو أكبر من قطب الدين، فكاتبه بعض الأمراء وطلبوه إليهم منهم المقدّم والد شمس الدين بن المقدّم، وهو حينئذ دز دار سنجار، فسار نور الدين جريدة في سبعين فارسا من أكابر دولته منهم أسد الدين شيركوه، ومجد الدين أبو بكر بن الداية وغيرهما، فوصلوا إلى ماكسين في ستة أنفس في يوم شديد المطر، وعليهم اللبابيد، فلم يعرفهم الذين بالباب، وأرسلو إلى الشحنة وأخبروه بوصول نفر من الأجناد كأنهم تركمان، فلم يستتم القاصد كلامه حتى وصل نور الدين فحين رآه الشحنة قبل يده وخرج عن الدار فنزلها نور الدين حتى لحق به أصحابه، وسار مجداً إلى سنجار فوصلها وليس معه إلاّ نفر يسير، فنزل بظاهر البلد وألقى نفسه على محفورة صغيرة من شدّة تعبه، وأرسل إلى المقدّم بالقلعة يعرفه وصوله، وكان المقدّم قد استدعي من الموصل لأن خبره مع نور الدين بلغ من بها فأرسلوا إليه، فوقف عدّة أيام فلم يصل نور الدين، فسار إلى الموصل، وترك ابنه شمس الدين بسنجار، وقال له: أنا أتاخر في الطريق فإن وصل نور الدين فأرسل من يعلمني، فلما فارق سنجار وصل نور الدين، فلما علم شمس الدين بوصوله أرسل قاصدا إلى أبيه بالخبر وأنهى الحال إلى نور الدين فخاف فوات الأمر، ووصل القاصد الذي سيره ابن المقدم إلى أبيه فأدركه بتل يعفر، فعاد إلى سنجار وسلمها إلى نور الدين، وكاتب فخر الدين قرا أرسلان بن داود صاحب الحصن يستنجده، وبذل له قلعة الهيثم فسار إليه بجنده، فلما سمع قطب الدين الخبر جمع عساكره وسار عن الموصل، نحو سنجار ومعه الجمال والزين ونزلوا بتل يعفر، وأرسلوا إلى نور الدين ينكرون عليه إقدامه وأخذه ما ليس له، وتهددوه بقصده وإخراجه من البلاد قهراً إن لم يرجع اختيارا، فأعاد الجواب: إنني أنا الاكبروأنا أحق أن أدبر أمر أخي منكم، وما جئت إلاّ لما تتابعت كتب الأمراء يذكرون كراهيتهم لولايتكم عليهم - يعني الجمال والزين- فخفت أن يحملهم الغيظ والأنفة على أن يخرجوا البلاد من أيدينا، فأما تهدّدكم إياي بالقتال فأنا ما أقاتلكم إلاّ

بجندكم وكان قد هرب إليه جماعة من أجنادهم، فخافوا أن يلقوه لئلا يخامر عليهم باقي العسكر، ودخل الأمراء في الصلح وأشار به جمال الدين الوزير، وقال: نحن نظهر للسلطان والخليفة أننا تبع نور الدين، ونور الدين يظهر للفرنج أنه يحكمنا ويهدّدهم بنا، فإن كاشفناه وحاربناه، فإن ظفر بنا طمع فينا السلطان، وإن ظفرنا به طمع فينا الفرنج، ولنا بالشام حمص، وقد وصار له عندنا سنجار، فهذه أنفع لنا من تلك، وتلك أنفع له من هذه والرأي أن نسلم إليه حمص ونأخذ سنجار وهو في ثغر بازاء الفرنج ويتعين مساعدته، فاتفق الجماعة على هذا الرأي وسار جمال الدين إلى نور الدين وأبرم معه الأمر وتسلم حمص وسلم سنجار إلى أخيه، وعاد نور الدين وأخذ ما كان بسنجار من المال، ولما تسلم قطب الدين سنجار أقطعها لزين الدين لأن حمص كانت لأخيه ينال ، وهو مقيم بها، واتفقت كلمتهم واتحدت آراؤهم، وكل واحد منهما لايصدر إلاّ عن أمر أخيه، وطلب نور الدين أن يكون الجمال عنده، فقال له الجمال:أنت عندك من الكفاية ما يستغني به عن وزير ومشير وليس عندك من الأعداء مثل ما عند أخيك لأنّ عدّوك كافر فالناس يدفعونه ديانة، وأعداء أخيك مسلمون فيحتاج من يقوم بدفعهم، وإذا كنت عند أخيك فالنفع إليك عائد وأريد من بلادك مثل مالي من بلاد أخيك معونة على كثرة خرجي، فأجابه إلى ذلك فقال له جمال الدين: أنت عليك خرج كثير لأجل الكفار فيجب مساعدتك وأنا اقنع منك بعشرة آلاف دينار كل سنة، فأمر له بها، فكان نائب جمال الدين يقبضها كل سنة ويشتري بها أسرى من الفرنج ويطلقهم.

قلت :وقرأت في ديوان القيسراني وقال في نور الدين عند قدومه وقد استولى على سنجار وأعمال الرحبة والفرات، وذلك في منتصف ذي القعدة سنة أربعين وخمسمائة:

هـــذا الـــذي ولـــدت لـــه الافكـــار
وتمخضـــت فـــألا بـــه الاشعـــار
وجـــرت لـــه خيـــل النهـــى في حلبـــة
وردت وصفـــو ضميرهـــا المضمار
واتـــت بـــه نـــذر القـــوافي بـــرهـــة
إن القـــوافي وحيهـــا انـــذار
حكمـــت لسيفـــك بـــا لمما لـــك عنـــوة
حكـــما لعمـــري مـــا عليـــه غبـــار
يـــا أيها الملـــك المطيـــل نجـــاده
بـــرّيـــديـــن بهديـــه الابـــرار
يـــا بـــن السيـــوف وهـــل فخـــرت بنسبـــة
إلاّ سما بـــك للجـــدود فخـــار
فـــارقـــت دار الملـــك غير مفـــارق
لـــك مـــن عـــلاك بكـــل أرض دار
في عسكـــر تخفـــي كـــواكـــب ليلـــه
نقعـــا فيطلعهـــا القنـــا الخطـــار
جـــرّار أذيـــال العجـــاج وراءه
وأمـــامـــه بـــل جحفـــل جـــرّار
تـــدنـــي لـــك الغـــايـــات أكبر همة
نـــوريـــة همم الملـــوك كبـــار
حتـــى مـــلأت الخافقين مهـــابـــة
دانـــت لعظـــم نظـــامهـــا الاقطـــار
وملكـــت سنجـــارا ومـــا مـــن بلـــدة
إلاّ تمنـــت أنها سنجـــار
وبسطـــت بـــالأمـــوال كفـــا طـــالما
طـــالـــت بها الآمـــال وهـــي قصـــار
وجـــرت بـــأمـــداد الجيـــاد شعـــابها
جـــري السيـــول ومـــا ســـواك قـــرار

وثنى الفرات إليه يديك عنانه
والبحر ما اتصلت به الانهار
وملكت رحبة مالك فتبرجت
منها العيناك كاعب معطار
جاءتك في حلل الربيع وحليها
قبل الربيع شقائق وبهار
نثرت عليك هوى القلوب محبة
وتودّلو أنّ النجوم نثار
فأقمت كالشمس إن نأت
عن أفقها فلها به أقمار
من كان نور الدين ثم أجنّة
ليل السرى حفت به الانوار
تدعو البلاد إليك ألسنة الظبى
فيجيبك الانجاد والاغوار
حتى عمدت الدين يا بن عماده
بقنا أسنتها عليه منار
وقفلت من أسفار جدّك قادما
كالصبح نمّ بثغره الاسفار
يغشى البصائر نور وجهك بعدما اعـ
ـترکت على قسما تـه الأبصار
حتى عمرت بكل قلب صدره
حيث الصدور من القلوب قفار
إن تمس في حلب رياحك غضة
فلها بأنطاكية إعصار
وغدت جيادك بالشآم مقيمة
ولها بأطراف الدروب مغار
همم سبقت بها إلى مهج العدى
صرف الردى ومسيره إحضار

وأرى صباح القمص كان خديعة
فطغى وجاور ليس ثم وجار
سأل الصنيعة غير محقوق بها
والخير يهدم ما بنى الختار
حتى إذا ما غبت أقدم عائثا
اقدام من لم يدن منه قرار
أمضى السلاح على عدوّك بغيه
بالغدر يطعن في الوغى الغدّار
فاحسم عناد ذوي العناد بجحفل
كالليل فيه من الصفيح بهار
جند على جرد أمام صدورها
صدر عليه من اليقين صدار
قد بايع الاخلاص بيعة نصره
ولكل هادي أمّة أنصار
ملك له من عدله ووفائه
جيش به تستفتح الامصار
وإذا الملوك تثاقلت عن غاية
وأرادها خفت به الاقدار
وإذا انتضته إلى الثغور عزيمة
قامت مقام جنوده الاخبار

ولابن منير من قصيدة فيه:

ترنح معطف الزوراء لما
دعاك لزور سنجار لمام
وزلزلت الصعيد وراء مصر
غداة علتك في قطنا الخيام
رجاء هزتيك وتلك خوف
ولو قد شئت ضمهما قرام

بعيشك يا مبيد الخيل ركضا
حمام هنّ تحتك أم حمام

وقال ابن منير أيضا يهنئه بتسلم قلعة حمص من ينال، وأنشده في القلعة قصيدة أوّلها:

ارحها فهي أزلام المعالي
لهنّ إلى الوغى توق المغالي
أما ومقيلهن بكل نقع
يقوّض بالهدى عمر الضلال
وأي سيوفك الحمر الحواشي
منزلة متى دعيت نزال
مواض إن سللن سللن جزما
نفاه من الطلى لفظ اعتلال
لقد غلب الصليب بحر حرب
يشيب أوارها لمم الليالي
وشمت لنصر هذا الدين بأساً
يحرّم منه كل حمى حلال
وقايع أترعت في كل فج
وقايع جوّها دامي العزال

ومنها:

تسائل حمص عن منسي دين
تقاضاه لك الحجج الخوالي
فواتت وهي أخت النجم بعدا
ووعداً صيغ من مطل مطال
تشامخ أنفها عزاً وشدّت
على أن لا تنال يداينال

فمازالـــــت رقـــــاك تجدّنقضـــــا
لما تثنيـــــه مـــــن مـــــرر الحبـــــال
إلى أن أطلـــــق الحسنـــــاء كـــــرهـــــا
وآل إلى مـــــــــلاوحـــــــــة المآلي
يصـــــد الـــــوجـــــه عـــــن شما القـــــت
يـــــد الاشـــــم ذي بـــــاع طـــــوال
شغلـــــت بها يمينـــــك والمواضي
تكفـــــــــــــل أن مصر للشمال
إذا فتـــــح القتـــــال عليـــــك أرضـــــا
أبـــــاحـــــك أختهـــــا الاعـــــن قتـــــال

فصل

قـال الرئيـس أبو يعلى: اتصـل الخبر بنور الـديـن بافسـاد الفرنـج في الأعمال الحورانية بالنهب والسبي، فعزم على التـأهب لقصدهم وكتب إلى من بدمشق يعلمهم بما عزم عليه من الجهاد، ويستدعي المعونة على ذلك بألف فـارس تصل إليه مع مقدّم يعول عليـه، وقد كانوا عاهـدوا الفرنج على أن يكـونوا يـدا واحدة على مـن يقصـدهم مـن عساكـر المسلمين، فاحتـج عليه وغولـط، فلما عرف ذلك رحـل ونزل بمرج يبـوس، وبعض العساكر بيعفـور، فلما قرب من دمشق وعرف مـن بها خبره ولم يعلموا أين قصـده، وقد كـانـوا راسلوا الافـرنج بخبره وقـرّروا معهـم الانجاد عليـه، وكانـوا قد نهضـوا إلى ناحيـة عسقلان لعمارة غـزة، ووصلت أوائلهـم إلى بانيـاس وعرف نـور الدين خبرهـم، فلم يحفـل بهم وقال: لاأنحـرف عن جهادهـم، وهو مع ذلـك كاف أيدي أصحـابه عن العيـث والافساد في الضياع ،وأمر بـاحسان الرأي في الفلاحين والتخفيف عنهم، والـدعاء له مع ذلك متواصل من أهل دمشـق وأعمالها، وسائر البلاد وأطرافها، وكان الغيث قـد انحبس عن حـوران والمرج والغوطـة، ونزح أكثر أهـل حوران عنها للمحـل واشتداد الأمر، فلما وصل نـور الدين إلى بعلبك اتفـق نزول

المطر يوم الثلاثاء ثالث ذي الحجة، وأقام إلى مثله فروى الآكام والوهاد، وجرت الأودية وزادت الأنهاروامتلأت برك حوران ودارت أرحيتها، وعاد ما صنوح من الزرع والنبات طرياً ، وحشد الناس بالدعاء لنور الدين وقالوا: هذا ببركته وحسن معدلته وسيرته، ثم رحل من منزله بالأعوج ونزل بجسر الخشب المعروف بمنازل العساكر في السادس والعشرين من ذي الحجة، وأرسل إلى مجيرالدين والرئيس وقال: إنني ما قصدت بنزول هذا المنزل طلبا لمحاربتكم ولا منازلتكم وإنما دعاني إلى هذا الأمر كثرة شكاية المسلمين من أهل حوران والعربان بأن الفلاحين أخذت أموالهم وسبيت نساؤهم وأطفالهم بيد الافرنج، وعدم الناصر لهم ولايسعني مع ما أعطاني اللّه ، وله الحمد، من الاقتدار على نصرة المسلمين وجهاد المشركين وكثرة المال والرجال أن أقعد عنهم ولا انتصر لهم، مع معرفتي بعجزكم عن حفظ أعمالكم والذب والتقصير الذي دعاكم إلى الاستصراخ بالأفرنج على محاربتي، وبذلكم لهم أموال الضعفاء والمساكين من الرعية ظلما لهم وتعديا عليهم، وهذا لا يرضي اللّه تعالى ولا أحد من المسلمين، ولا بدّ من المعونة من ألف فارس مزاحي العلة تجرّد مع من يوثق بشجاعته من المقدّمين لتخليص ثغر عسقلان وغزة.

قال: فكان الجواب عن هذه الرسالة : ليس بيننا وبينك إلاّ السيف، وسيوافينا من الافرنج ما يعيننا على دفعك إن قصدتنا ونزلت إلينا، فلما عاد الرسول بهذا الجواب ووقف عليه، أكثر التعجب منه والانكار له، وعزم على الزحف إلى البلد ومحاربته في غد ذلك اليوم، فأرسل اللّه من الامطار وتداركها ودوامها ما منعه من ذلك.

ودخلت سنة خمس وأربعين

ففي مستهل المحرّم تقرّر الصلح بين نور الدين وأرباب دمشق والسبب في ذلك أن نور الدين اشفق من سفك دماء المسلمين إن أقام على حربها والمضايقة لها بعد ما اتصل به من أخبار دعته إلى ذلك، واتفق أنه بذل لهم الطاعة، واقامة الخطبة له على منبر دمشق بعد الخليفة والسلطان، وكذا السكة، ووقعت الايمان على ذلك، وخلع نور الدين على مجير الدين خلعة كاملة بالطوق، وأعاده مكرما محترما، وخطب له على منبر دمشق يوم الجمعة رابع عشر محرم، ثم استدعى الرئيس الى المخيم، وخلع عليه خلعة كاملة أيضاً وأعاده الى البلد، وخرج اليه جماعة من الأجناد والخواص الى المخيم واختلطوا به، ووصل من استماحه من الطلاب والقراء والضعفاء بحيث ما خاب قاصده، ولا أكدى سائله، ورحل عن مخيمه عائداً الى حلب بعد احكام ما قرر، وتكميل ما دبر

قلت:وفي ذلك يقول القيسراني:

لك اللّه إن حاربت فالنصر والفتح
وإن شئت صلحا عدّ من حزمك الصلح
وهل أنت إلاّ السيف في كل حالة
فطورا له حد وطورا له صفح
سقيت الردينيات حتى رددتها
ترنح من سكر فخلّ القنا تصحو
وما كان كف العزم إلاّ اشارة
إلى الحزم لو لم يغضب السيف والرمح
وقد علم الاعداء مذ بت جانحا
إلى السلم ما تنوي بذاك وما تنحو

إذا مـــــا دمشـــــق ملكتـــــك عنـــــانها
تيقـــن مـــن في إيليـــا أنـــه الـــذبـــح
متـــى التـــف نقـــع الجحفلين على الهدى
فـــلا مهمـــة يحوي الضـــلال ولا سفـــح
إذا سـار نـور الـديـن في الجيـش عـازمـا
فقـــولا لليـــل الافـــك قـــد طلـــع الصبـــح
تـركـت قلـوب الشرك تشكـو جـراحهـا
فـــلا زالـــت الشكـــوى ولا انـــدمـــل الجرح
صبرت فكـــــان الصبر غير مغبـــــة
فسيـق إليـك الملـك يسعـى بـه النجـح
كـــأنّ القنـــا تجلـــو لـــه وجـــه أمـــره
ولـــو أمهلـــت بلقيـــس مـــا غـــرّهـــا الصرح
بـــدولتـــك الغـّــراء أصبـــح ضـــدّهـــا
بهيما ولـــولا الحســـن مـــا عـــرف القبـــح
وكـــم مـــن قـــريـــح القلـــب لـــوبـــات واردا
مـــوارد هـــذا العـــدل مـــا مســـه قـــرح
سخـابـك هـذا الـدهـر جـودا على الـورى
على أنـــه مـــا زال في طبعـــه شـــح
وقـــد كـــان يمحـــو رســـم كـــل فضيلـــة
ونحـــن نـــراه اليـــوم يثبـــت مـــا يمحـــو
بـــك ابتهـــج الالبـــاب وانتهـــج الحجـــى
وأثمـــــرت الآداب واطـــــردا المدح
ولاذت بـــك التقـــوى وعـــاذت بـــك العلى
ودانـــت لـــك الـــدنيـــا وعـــز بـــك السرح
فـــلا قلـــب الا قـــد تملكتـــه هـــوى
ولا صـــدر إلاّ قـــد جـــلاه لـــك النصـــح
ومـــــا الجود في الامـــــلاك إلاّ تجارة
فمـــن فـــاتـــه حمد الـــورى فـــاتـــه الـــربـــح

ولم اختصر مـــــا قلـــــت إلاّ لأننـــــي
اعبر عما لا يقـــــــوم بـــــــه الشرح

فصل

في فتح عزاز

قال أبو يعلى: وورد الخبر في الخامس من المحرم من ناحية حلب بأن عسكرها من التركمان ظفر بابن جوسلين صاحب أعزاز وأصحابه، وحصلوا في قبضة الاسر في قلعة حلب، فسر هذا الفتح كافة الناس، وتوجه نور الدين في عسكره إلى أعزاز، ونزل عليها وضايقها، وواظب قتالها إلى أن سهل الله تعالى ملكها بالأمان ، وهي على غاية من المنعة والحصانة والرفعة، فلما تسلمها رتب فيها من ثقاته من وثق به، ورحل عنها ظافراً مسروراً عائدا إلى حلب في أيام من شهر ربيع الأوّل.

قلت:وذكر ابن منير فتح عزاز وغيرها وأمر دمشق في قصيدة أوّلها:

فـــدتـــك القلـــوب بـــألبـــابها
وســـاح الملـــوك بـــأربـــابها
كتـــائب تـــرمـــي جنـــود الصليـــ
ـــب منهـــا بتقطيـــع أصـــلابها
إذا مـــا انثنـــت مـــن قـــراع الكما
ة كسـت وفـــدهـــا وشي أســـلابها
تبرنـــس منهـــا البرنـــس الثيـــا
ب وحلتـــه مـــن وقـــع احـــلابها
عشيـــة غصـــت على إنـــب
نفـــوس النصـــارى بغصـــابها
وقـــام لأحمد محمـــودهـــا
بجـــذع مـــوازن أحـــزابها